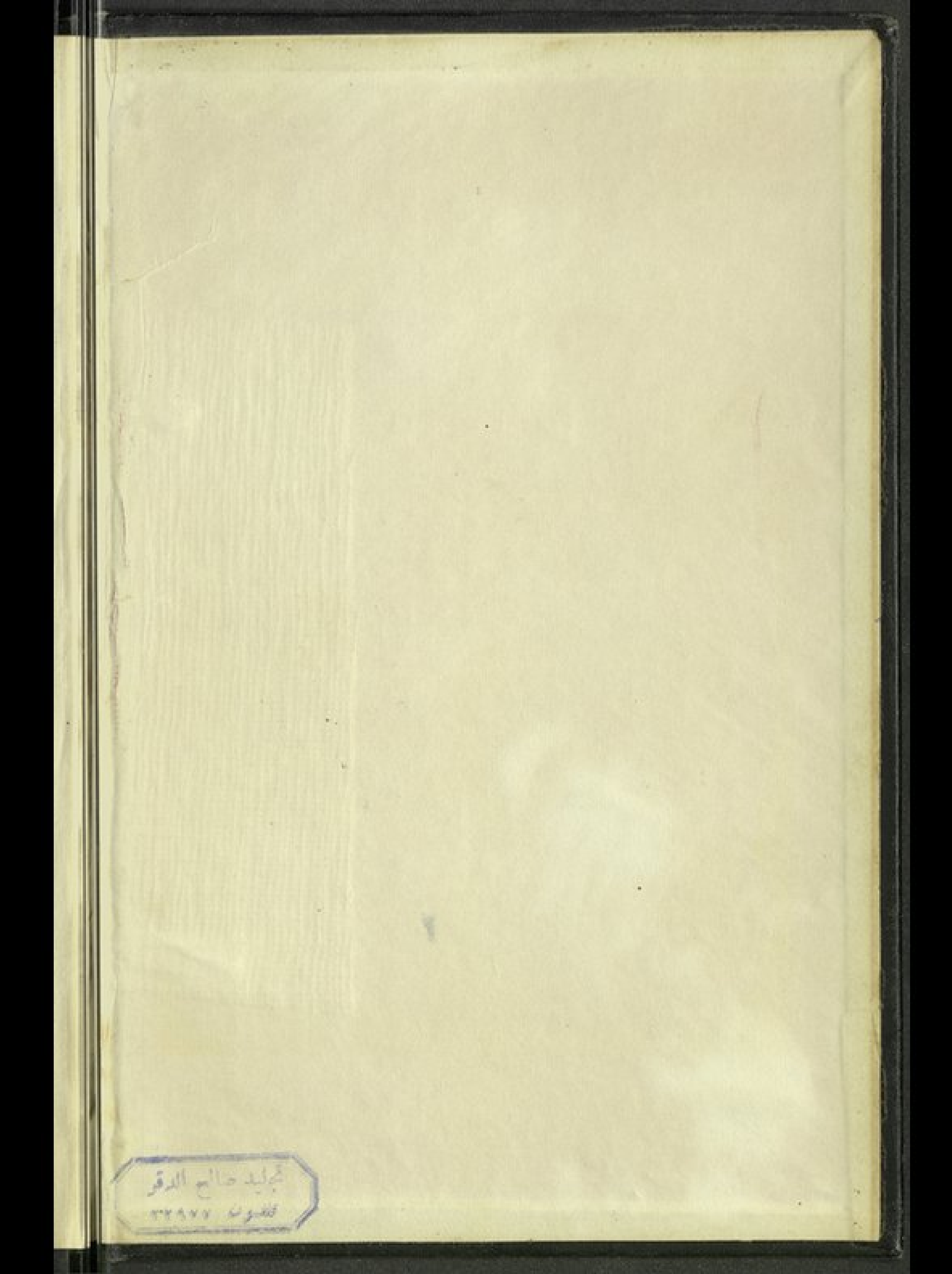
الدجيلي

المختار الثقفي


تجليد صالح الدقر
تلفون ٣٣٩٧٧

منشورات مكتبة النجاح - النجف

٦

المختار الثقفي

تأليف

احمد الدجيلي

سجل بمديرية معارف لواء كربلا

برقم ٣٤٦١ — وبتاريخ ٢١/٥/١٩٥٥

مطبعة النجف — النجف

١٣٧٤ هـ

ما تقرؤه

في هذا الكتاب

الإهداء

الى رائد الاصلاح والثورة ...

الى من كان شعاره الثورة على الظلم الغاشم .

الى من جعل الثورة على الطغاة سنة يحمد السائرون عليها .

الى من بدأ النهضة في كربلاء ضد الظالمين فكانت كل نهضة على الظلم تقام بعده امتداداً لنهضته وتتمة لانتفاضته .

الى من زعزع بتضحيته ملك بني امية واقامت مظاهرها دولة فكرية خالدة شعارها (لا حياة مع الظالمين) .

الى من دعا الله ان ينتقم له من المحاربين الطغاة الجبابرة حين قال: (اللهم سلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبرة ولا يدع فيهم احداً الا قتله قتلة بقتلة وضربة بضربة ينتقم لي ولاوليائي وأهل بيتي واشياعي منهم) فكان كما اراد .

اليك يا ريحانة النبي ، ايها الحسين الشهيد ، حياة هذا البطل الذي تم على يده الانتقام .

تصدير

تشرف الكتاب بالمثول امام سماحة العلامة الجليل الشيخ محمد رضا المظفر معتمد منتدى النشر ، وبعد اطلاعه عليه تفضل علينا بهذه الكلمة القيمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

لا زلنا نعرف في (المختار الثقفي) رجلا لامعاً في تاريخ الثورات ، وشجاعا مد لها في الحروب ، وخطيباً مصقعاً على المنابر ، وسياسياً محنكا في قيادة الناس واستغلال العواطف . وهو مع كل ذلك شخصية متأرجحة في ألوان العقيدة المذهبية يغري الباحثين بالفحص عنه وعن سره ، ويدرس نفسيته وعقيدته ، لا سيما انه قاد اكبر ثورة ضد الدولة الاموية باسم الاخذ بثارات (الحسين الشهيد قتيل العبرة) . والتأريخ لا يسعه ان ينصف مثل هذه الشخصية ، فيكشف كل حقيقته للناس ، لان اعداء آل البيت لا يروق لهم ان يخلص مثل هذا الثائر الجبار من النقد والتهم بما يصح وما لا يصح ، ومحبو آل البيت من جانب آخر يحرصون كل الحرص على ان يظهر مثل هذا الآخذ باعظم ثار لهم باسمى المكارم الدينية والاخلاقية ، فتبقى لاجل ذلك جوانب جد مغرية من حياة مثل هذا الرجل تحتاج الى التمحيص والبحث

اضف الى ذلك انه على رغم كونه علويا في تربيته ونزعته وخصما

عنيداً لبني امية وآل الزبير وهو الوحيد الذي اخذ بثار الحسين فشفى صدور شيعته ، انه على رغم كل ذلك ، فان خطوط ثورته وتاريخه في العقيدة الصحيحة والفقه الاسلامي على طريقة آل البيت عليهم السلام ليست واضحة كل الوضوح . بل لا تزال منها جوانب غامضة تحتاج الى التدقيق والحل، لا سيما ان التساؤل لا يزال باقيا من الموجه او المجيز لحركته الثائرة التى لا تصلح بحال في مذهب الامامية بدون اجازة الامام او رضاه .

فهل ثار باجازة الامام زين العابدين عليه السلام ؟ ولماذا لم يعلن الامام ذلك؟ اولماذا لم يستغل الامام انتصاره ان كان عن امره فيحضر لقيادة الثورة ؟

ولكن كل ذلك لم يقع ، ولم يدل سير الحادثة والتاريخ انه ينبغي ان يقع ، فهل نرجح انه لم يكن مجازا من الامام بالمعنى الصحيح من الاجازة؟

اذن ! فهل ثار باجازة محمد ابن الحنفية ، لانه ـ كما يقولون ـ كيساني العقيدة ؟ ـ ولكن ابن الحنفية ليس بذلك الشخص الذى كان يدعى الامامة حتى يجيز مثل هذا العمل الهائل بدون رضا الامام ، وقد اريقت فيه آلاف الدماء المسلمة وذهبت كثير من الاموال الطائلة . والفرح بوقوع الانتقام من قاتلي الشهيد ابي عبدالله شيء والرضا والاجازة للعمل شيء آخر

واذا لم يثبت كل ذلك او لم يثبت ما يبرره ، فكل ما قام به من عمل ليس له وزن صحيح في مذهب آل البيت ليصح ان يعد المختار من الشخصيات المقدسة في تاريخهم .

هذا موضع هو احد الجوانب الحساسة ، بل اهمها في ثورة المختار الثقفي

التي تحتاج الى درس وعمق في الدرس ، لكشف ما اغلق من نفسيته وصحة عمله . والالتذاذ بما قام به من عمل لشفاء الصدور الواغرة على قتلة شهيد الطف يدعو – كما قلنا – الى التشبث بالطريقة الصحيحة لتبرير عمله او الى البحث – على الاقل – عما يكشف هذا الغموض .

مضافا الى ان معرض ثورته ووقائع حروبه هي في حد ذاتها معرض لذيذ لمحبي الانتقام من الظالمين والمعتدين ، وتأريخه تاريخ حقبة حساسة من تاريخ أهم العهود الاسلامية تليق بالدرس والعرض والتأليف .

على ان غموض الحوادث التاريخية هو نفسه وحده يثير في نفوس الباحثين الرغبة في التمحيص والتأليف بل يحمل القراء على الاستقصاء وتتبع ماجريات تلكم الحوادث .

* * *

ان تلك الامور بل هذا الامر الاخير بالخصوص احد الدوافع – فيما اعتقد – لتأليف هذا الكتاب المفيد الذي اقدمه بين يديك لمؤلفه قرة العين بل الجلدة ما بين العينين الاستاذ (الدجيلي)

بل لئن دفعه حبه لثورة المختار الذي حمله على الدفاع عنه بكل ما اوتي من قوة . فان الغموض في تاريخه كان هو الحافز الاول والمشجع لاختيار هذا الموضوع الشيق عند الباحثين والكتاب .

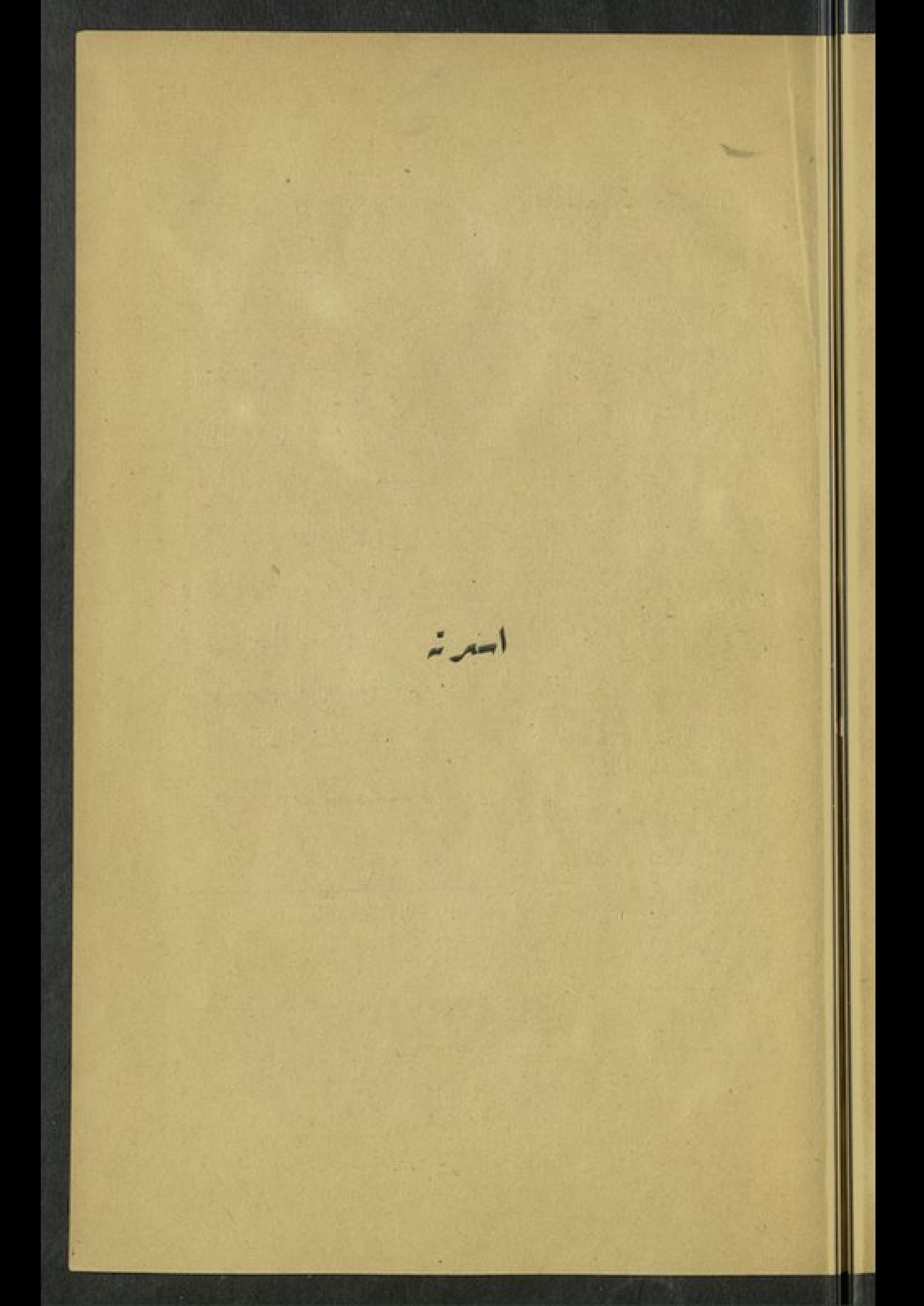
وبعد هذا ، فان القارىء له حسابه عند المؤلفين في انتقاء موضوع

ابحاثهم . والمنتظر من القراء ان تغريهم على المطالعة دراسة امثال هـــذه الموضوعات فيستدرجون لاقتناء الكتاب حينما تثار فيهم الرغبة الكامنة لمعرفة غوامض التاريخ . واني لاحمد لأحمد مؤلفنا لباقته في استغلال هذه الناحية من كوامن نفسيات القراء لترويج ما يريد ان يدعو اليه في مؤلفه هذا .

وهذا مؤلف ـ على صغره ـ يعطيك درساً جديداً عن حياة المختار يمكنك من الاطلاع على اسرار ثورة هذا الرجل الحديدي وحسن نواياه في جهاده وجميل بلائه في حروبه .

واذا كان الكتاب باكورة تجربة مؤلفه في النشر وهو في بواكير عمره المديد ان شاء الله تعالى فاني اتوقع له الانتشار والرواج واقبال القراء المتعطشين لمثل هذه البحوث النافعة . واسأل الله عز وجل ان يجعل منه مؤلفاً بارعاً ـ كما جعل منه شاعراً حساساً ـ ليخدم الحق للحق في مؤلفاته المقبلة التي ستكون ان شاء الله في الطليعة من بين الكتب الحديثة . وارجو لي وله التوفيق والتسديد انه ولي التوفيق .

محمد رضا المظفر



اسمرنه

ينتمي المختار في نسبه الى قبيلة عربية أصيلة كانت (تتيه على اقرانها من القبائل العربية) (١) هي قبيلة (ثقيف) وهو جـــدهم الأعلى الذي تفرعت منه هذه السلالة ، ويحدثنا (ياقوت الحموي) في هذا الصدد ، ان (ثقيفاً) اسمه (قسي بن منبه) وقد جاء بـ (قضبان) فغرسها في واد يقال له (وج) ـ وقد عرف بعد ذلك بالطائف (٢) ـ فانبتت فسمي (ثقيفاً) ، وقد بقي (ثقيف) في هذا الوادي حتى كثر ولده وصاروا أسرة كبيرة فحصنوا الطائف وبنوا عليها طوقاً وكان أن شبت الحرب بينهم وبين اخوالهم بني عامر حتى انتصروا عليهم ـ وكان (ثقيف) قد تزوج بابنتي عامر الواحدة بعد الاخرى ـ واخيراً امتنعوا عن أداء الحق لبني عامر فضرب المثل باستقلالهم ، قال ابو طالب :

منعنا ارضنا من كل حي ... كما امتنعت بطائفها ثقيف

أتاهم معشر كي يسلبوهم ... فحالت دون ذلكم السيوف

* * *

(١) جاءت هذه الفقرة في ترجمة الحجاج ، لابن خلكان .

(٢) في السنة التاسعة من الهجرة ارسل النبي صلى الله عليه وآله جيشاً كثيفاً لغزو الطائف كما يقول (البلاذري) في فتوح البلدان وحاصرها مدة شهرين وضربها بالمنجنيق ولكن ذلك لم يجد نفعاً فقفل النبي (ص) راجعاً الى مكة لأن (ثقيفاً) كانوا أدرى بفنون الحرب غير انه بعد ذلك أرسلت ثقيف سادتها لعقد الصلح مع المسلمين .

وكان جد المختار لأبيه (مسعود بن عمرو) له منزلته المرموقة في النفوس وقد نزلت في حقه آية من القرآن جاءت على لسان مشركي قريش (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (١) والقريتان هما مكة والطائف والرجلان هما (مسعود بن عمرو) والآخر هو (الوليد بن المغيرة بن عمر بن مخزوم) وهو القائل لو كان ما يقول محمد حقاً لنزل علي القرآن أو على (مسعود بن عمرو) .

أما والد المختار (ابو عبيد) فقد كان من جلة الصحابة الافذاذ وكان له في مضمار الجهاد ذكر محمود ويكفي للتدليل على ذلك موقفه المشرف في (واقعة الجسر)(٢) تلك الوقعة التي كانت استجابة لدعوة عمر حينما قرر فتح العراق وقد برهن (أبو عبيد) في هذه الواقعة ما يدلنا على فروسيته وبطولته ، وقد ذهب ضحية هذه المعركة خلق كثير قتل فيها (ابو عبيد) واخوه الحكم وابنه جبر ، اما المختار فكان ابن ثلاث عشرة سنة يتحفز الى الحرب ليأخذ بثار أبيه ولكن عمه ـ سعد ـ وقد شاهد هذه المعركة

(١) سورة الزخرف آية ٣٠ ، يقول ابن حجر في الاصابة ج ٣ ص ٤١٢ عن ابن حاتم وابن مردويه عن طريق ابن عباس انها نزلت فى رجل من ثقيف ورجل من قريش والثقفى هو (مسعود بن عمرو) وفى المعارف لابن قتيبة ص ١٧٥ كان جده مسعود هو المراد من قوله تعالى : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .

(٢) كانت هذه الواقعة المسماة (يوم الجسر) فى آخر رمضان عام ١٢ وقد بلغ من استشهد فيها من المسلمين الف وثلاثمائة رجل . وقيل قرابة أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق .

كان يقبض عليه ضناً بحياته ، ومن هذا نستطيع ان نقرر ان ولادته كانت في أول عام من هجرة النبي ﴿ص﴾

وقد صار عمه ـ سعد ـ بعد ذلك عامل علي ﴿ع﴾ على المدائن غير اننا لا نستطيع ان نقرر مدة ولايته على المدائن ولا تاريخ ولايته عليها بيد انه مما لا شك فيه انه بقي إلى أيام صلح الامام الحسن ﴿ع﴾ حيث بقي ـ سعد ـ بمرض الحسن ﴿ع﴾ في « المقصورة البيضاء » حتى برأ من طعنة « الجراح بن سنان » الذى أصابه بمغول في فخذه

ومما يذكر في هـذا الصدد ان سعداً شارك مشاركة فعلية في وقعتي الجمل وصفين ووقف فى صفوف الامام موقفاً مجيداً ، أمره الامام على « قيس ، وعبس ، وذبيان »(١) وعقد له راية في وقعة الجمل فكان أمير هؤلاء في هذه الموقعة كذلك لم تفته النصرة في واقعة صفين (٢)

* * *

رافق المختار عمه حين ولاه الامام علي ﴿ع﴾ على « المدائن » فكان إذا غاب ـ سعد ـ استخلفه مكانه لما كان يجد في ابن أخيه من المقدرة والكفاءة في إدارة شؤون الولاية ، وقد اتفق له ذلك مرة حينما ذهب عمه ليقاتل « عبدالله بن وهب الراسبي » في خمس مائة فارس والتقى معه في كرخ بغداد وقد كان ـ عبدالله ـ خارجياً اعلن العصيان والخروج عن طاعة الامام ﴿ع﴾ فكان المختار خليفته على المدائن (٣) .

(١) انظر الأخبار الطوال ص ١٤٨ .

(٢) الاصابة ج ٣ ص ٧٨ . (٣) انظر الاخبار الطوال ص ١٩٠ .

وأمه (دومة بنت وهب بن عمرو بن معتب) كانت من سيدات ثقيف وكان يذكرها المختار ويعتز بالانتساب لها فيقول (انا ابن دومة) بنى بها ابو عبيد بعد عزوف شديد عن الزواج وبعد امتناعه من التزويج بنساء قومه حتى رأى في المنام ـ فيما يروي الرواة ـ كأن قائلا يقول : (تزوج دومة فما تسمع فيها للائم لومة) أنجبت له عدة أولاد وهم ـ خلا المختار ـ ما يأتي :

١ — جبر

٢ — صفية

٣ — أسيد (١)

٤ — أبو جبر

٥ — أبو الحكم

٦ — أبو امية (٢)

أما جبر فقد قتل مع ابيه في واقعة الجسر واما صفية فقد كانت زوج (عبدالله بن عمر) ادركت النبي (ص) وروى عنها « نافع » مولى ابن عمر ـ كما يقول ابن عبدالبر في الأستيعاب ـ كذلك روت عن عائشة وحفصة ، ومهما يكن الأمر ، فقد كانت هذه المرأة اثيرة عند زوجها يحبها حبا عميقا وينزلها من نفسه المنزلة السامية ، وقد استطاعت بهذه العاطفة أن

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٣٨ .
(٢) اخذ الثأر لابن نما .

تستغل زوجها وتحرضه ليفك اخاها من سجن (عبيد الله بن زياد) ويتوسط في اطلاق سراحه ، وعبدالله بن عمر ، كانت له الحظوة عند الأمراء والولاة لأعتزاله الخلافة ولما كان يتمتع به من شخصية ممتازة .

اما اخوته فقد أوصد التاريخ علينا نوافذ البحث فلم نعد نعرف عنهم شيئاً . .

وكان للمختار عدة زوجات ، ولكن التاريخ لم يذكر سوى ثلاثة منهن تزوج بهن المختار على التعاقب واحدة بعد الأخرى ، اولاها بنت النعمان بن بشير الانصاري ، واسمها (عمرة) وكانت هذه الزوجة على جانب عظيم من الحب والموالاة لزوجها الحبيب ، وعلى جانب عظيم من العقيدة والولاء لآل البيت ، عرض عليها (مصعب بن الزبير) حين فتك بزوجها وسبعة آلاف من أهل القبلة على حد قول (ابن عمر) حين عاب عليه ذلك فآثرت القتل على شدة عاطفة المرأة واستخذائها أمام الأمر الواقع وهي تقول :

(شهادة ارزقهاثم اتركها كلا إنها موتةثم الجنة ، والقدوم على رسول الله وأهل بيته ، (ثم قالت) والله لا يكون آتي مع ابن هند فاتبعه واترك ابن أبي طالب وشيعته (١) ، اللهم اشهد أني متبعة نبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته فأمربها مصعب فاخرجت مابين الحيرة والكوفة وقتلت صبرا(٢)

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٥٨

وأخرى وتعرف « بأم ثابت » بنت سمرة بن جندب وقد كان له منها ابنان هما « اسحاق » و « محمد » وهذه الأخيرة أيضاً عرضت على البراءة فآثرت الحياة ولعنت زوجها وتبرأت منه وقالت :

(لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لأقررت أشهد ان المختار كافر)

وليس بخاف كلمة « مع السيف » في هذا المقام من انها لم تكن لتعتقد بكفر زوجها في هذه الشهادة وانما ابقاء على حياتها .

وتزوج ـ المختار ـ بثالثة وهي « أم زيد » الصغرى بنت سعد بن عمرو بن نفيل (١)

* * *

وبهذا العرض نستطيع أن نفهم بان الشجاعة والفروسية اللتين اكتسبها المختار كانتا ارثاً من آبائه الذين كانوا مضرب المثل في الدهاء، قال الجاحظ : في كتابه « الحيوان » « وثقيف من دهاة العرب » ونفهم كذلك انه سليل أسرة عربية توارثوا المجد كابراً عن كابر .



(١) راجع المحبر لمحمد بن حبيب الهاشمي ص ٧٠ ، طبع حيدر آباد

ولادته ونشأته

وفي أول عام من هجرة النبي ﴿ ص ﴾ في تلك السنة التي نزل عليه
الأمين ﴾ وأمره بالهجرة إلى المدينة حتى يأمن على حياته من كيد قريش
تلك السنة ولد لابي عبيد، ولدومة بنت وهب طفل يسميانه المختار ويلقب
بعد بـ « كيسان » ويكنى « أبو اسحاق » وهو احد ابنائه من زوجه
أم ثابت » بنت سمرة .

وسبب لقبه بـ « كيسان » فيما تحدثنا الرواة ، أن اباه جاء به إلى
﴿ ع ﴾ وهو صغير فاجلسه على فخذه وجعل يمسح على رأسه وهو يقول
يا كيس يا كيس) .

اما موطن ولادته ومهده الأول فلم يتطرق له التاريخ ولكننا إذا
رفنا ان الطائف هي منبع ثقيف لانتردد بالجزم بان فتانا ولد بالطائف
الطائف ـ كما رسمها المؤرخون ـ يقع على طرفي واد يقال « وج » وهي بلدة
سورة تبعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقي من مكة وعلى ارتفاع
ستة آلاف قدم من سطح البحر .

هذا من جهة موقعها الجغرافي ، اما من جهة مناخها وعذوبة هوائها
تكاد تكون في الصف الأول من البلدان الجميلة لما فيها من توفر الكروم
الفاكهة من عنب وموز اما الزبيب فيضرب المثل بجودته .

بهذه البيئة ولد المختار وبهذا الوسط أمضى سنيه الأولى ، وإذا كانت
ى البيئة ـ كما يقول علماء التربية ـ تؤثر في توجيه الطفل وفي سلوكه ،
ن منبته هذا قد اثر فيه اثراً كبيراً من الفطنة والذكاء والقوة لأن

ملكاته النفسية ومؤهلاته كانت تستجيب دون أية مقاومة ، ولا ننس ظاهرة أخرى في هذا الصدد وهو تربيــة الطفل على الفروسية في تلك العصور ، وعلى فنون الرياضة كالمصارعة والعدو وركوب الخيل وهـــذه الاخيرة عادة متأصلة في نفوس العرب حتى هذه العصور الحديثة ، الى غير ذلك من الألعاب التي تعود على الناشئين بالحيوية والحياة واعـــدادهم لممارسة الحروب .

بقي الوليد على هذا النحو من التربية ، وفي ذلك الجو الطليق ثلاث عشرة سنة كان في اثنائها هادىء البال مستقر النفس في احضان اسرة كريمة وبين أب يرمقه بعين الرعاية والتدليل ، وام تغذوه بحنانها وامومتها حتى شاء القدر أن يفجعه بأبيه وبقية اسرته ، ويواجه صدمة نفسيه من أعنف الصدمات تلك هي من جراء فاجعته بابيه في (واقعة الجسر) ، وهذه الصدمة التي اصيب فيها المختار وهو في غضون صباه قد تلقي علينا اضواء من تلك النفسية الثائرة التي كانت قلقة لا تستقر على حال حتى تأخذ بثأر الحسين (ع) - كما سنرى - لأن فقدانه مجموعة من اسرته (ثقيف) ومعها ابوه بالقتل لا بالموت الطبيعي ولأن هذا الفقدان والخسارة جاءا في عهد الطفولة عند المختار العهد الذي فيه تقرير المصير عند الانسان من حيث التوجيه النفسي والسلوكي في الحياة ، اقول إن فقدان أبيه وبقية من قتلوا من اسرته ثم وقوع هذا الفقدان في زمن الصبا هما اللذان كانا صدمة قاسية في حياة هذا الغلام الصغير .

ومن ذلك نعرف ان هذه الصدمة أثرت في نفس المختار تأثيراً قوياً بحيث اوجد في نفسه الحرمان ، ومن ثم خلق في نفسه روح الثورة والانتقام ، الانتقام على المجتمع الذي كان سبباً لفقدانه حنان الابوة وحمايتها وعلى هذا نستطيع أن نفسر - نفسياً - قدرته الكافية ومؤهلاته لتحمله مسئولية الآخذ بالثأر من مجموعة كبيرة من قتلة الحسين (ع)

* * *

وبعد هذه الفاجعة التي مني بها هذا الطفل بخسارة أبيه وثلة من اسرته نلاحظه انه يبقى فى المدينة (١) - مدينة الرسول - ليتأدب ويتثقف واخيراً ليتربى تربية علوية في ظل آل البيت .

واذا ذكرنا المدينة يجدر بنا أن نصور الحياة العقلية بتلك الاثناء لاسيما في عهد هذا الغلام الحدث لنعرف الى اي مدى وصل في ثقافته وآدابه .

كانت المدينة - ولا ريب - من أخصب البلاد العربية علماً وأدباً ، وقد كانت لا تضاهيها حتى مكة من هذه الجهة ففيها المحدث وفيها الراوي وفيها من الصحابة الذين تأثروا بتعاليم النبي (ص) وبالسنة النبوية عدد غير قليل ، وكان الطلاب يفدون اليها بكثرة فائقة على اختلاف طبقاتهم واجناسهم ولغاتهم .

(١) انظر الاصابة ، فى اسد الغابة ج ٤ ص ٥١٨ وجاء فيه عن ابن سعد عن الواقدى فى شهادة ابى عبيد قال فاقام المختار بالمدينة منقطعاً الى بنى هاشم ثم كان مع على بالعراق .

وتفسر لنا كتب التاريخ منشأ انتشار الثقافة بالمدينة بهذا التقرير (كان عمر يحرم أن توزع الاسرى في مواطن الحروب فكان يأتي بهم اولا الى المدينة وكثير منهم من الفرس والروم وكانوا من الطبقة الارستقراطية في قومهم ومتعلمين على النمط الذي ساد في امتهم وقومهم فاقام منهم في المدينة كثيرون وكانوا موالي لكبار الصحابة فصبغوا الحياة الاسلامية بعقليتهم التي تخالف بعض الوجوه عقلية العرب وكانوا قد الفوا علماً منظما وكتباً مدونة فاخذوا يتبعون هذه في تعاليم الاسلام)(١)

وقصارى القول فان المدينة كانت في عهد هذا الغلام مهوى افئدة الطلاب وكانت كعبة يحج اليها طلاب العلم ورواد الفضيلة ، ومما يجدر بالاشارة اليه في هذا المقام هو قيام الامام ﴿علي بن ابي طالب﴾ في حركة علمية خطيرة في ذلك العهد ومعه تلميذه الاكبر وراويته ﴿عبدالله بن عباس﴾ في توجيه الامة الاسلامية عامة والعنصر العربي خاصة ، فقد أخذ على عاتقه القيام بمحاضرات اسبوعية في ﴿المسجد الجامع﴾ من ﴿فلسفة ومنطق وبلاغة وفقه وتشريع اسلامي﴾ (٢) .

وهكذا تألفت نواة هذه الحركة في عهده وهو يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة وواضع حجرها الاساسي ، وقد بقيت هذه ﴿المدرسة العلوية﴾ تماشي العصور والاجيال وتساير موكب الحضارة الاسلامية تزدهر

---

(١) فجر الاسلام ٢١٢ .

(٢) مختصر تاريخ العرب ص ٤٣ .

وتخبو مرة نتيجة عسف بني امية واستبدادهم ولاسيما في وقعة الحرة التى هدمت فيها معظم المدارس والمنشئات العامة حتى توجت في عهد حفيده الامام جعفر بن محمد الصادق ﴿ع﴾ (١) وهذه الصورة التي رسمتها عن الحياة الفكرية بالمدينة ﴿منتزعة من التاريخ﴾ ومامن شك أن من يعيش بهذا الوسط المزدهر بالعلم والعرفان لابد وأن تنزع نفسه وتتأثر بملابسات هذه الحياة على قاعدة ﴿الانسان ابن بيئته﴾ .

اما عهوده الاولى بالتلمذة وعن اي استاذ تأثر في دراسته فذلك ما غفلت عنه المراجع التاريخية ، وهكذا نبقى حائرين وابواب البحث موصدة في وجوهنا حتى نراه وقد قيض له الحظ وهيأ لمطالعه السعيد الاتصال بـ ﴿محمد بن الحنفية﴾ اخي الحسين لابيه فتعلق به ووجد من هذا الاستاذ ، ما دفع به قدما في مجال الحياة الفكرية ثم توثقت اواصر الصلة والود بينهما حتى ارتفعت تلك الفروق التي تكون ـ غالباً ـ بين الاستاذ والتلميذ .

ثم يذهب هذا التلميذ يتأثر باستاذه ويترسم خطاه ولاسيما في اخذ الحديث (٢) عنه ، ومحمد هذا اقل ما يقال في فضله وعلو كعبه وعمق مادته ما حدثنا عنه ابن الجنيد حيث قال :

(١) مختصر تاريخ العرب ص٤٣

(٢) ابن نما فى رسالته لم يبرح المختار ماكان عليه منذ العهد العلوى من الانقطاع الى آل البيت والتزلف اليهم وولى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة غادر المختار العراق حتى اتى مدينة الرسول وكان يجالس فيها محمد بن الحنفية ويأخذ عنه الاحاديث .

﴿لا نعلم احداً أسند عن علي عن النبي ﴿ص﴾ ولا اصح مما اسند محمد (١) او ما حدثنا عن محمد بن هرون قال :

﴿كان محمد بن الحنفية احد الابطال في صدر الاسلام وكان ورعا واسع العلم﴾ (٢)

ولعل هذه الصلة الوثيقة بين المختار ومحمد تفسر لنا اتهامه بـ ﴿الكيسانية من لدن خصومه واصدقائه على السواء .

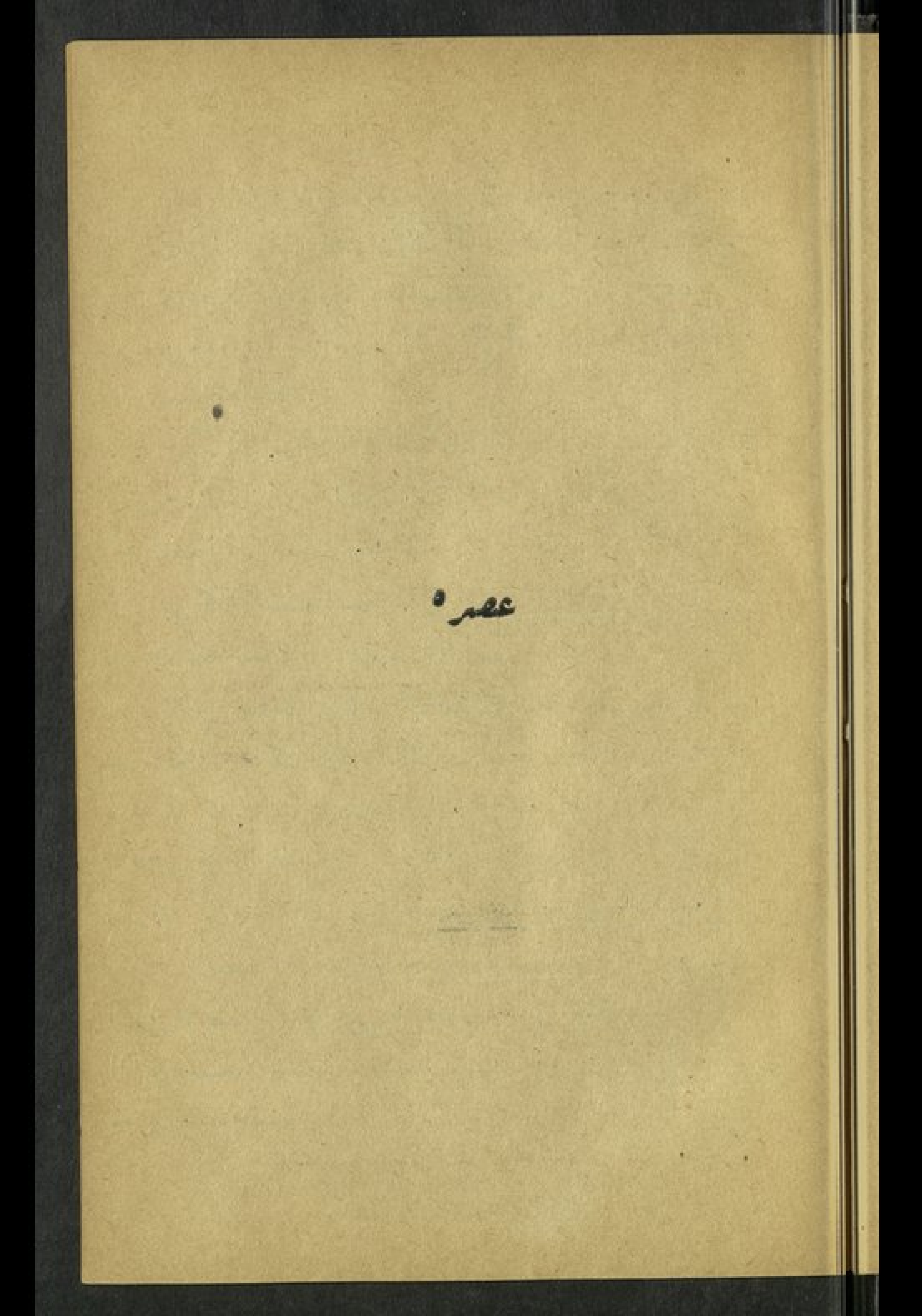
وهكذا نشأ المختار بهذه النشأة الطيبة حتى تأثر بحب آل البيت تأثراً واضحاً ، وقد اكسبته هذه الصلة عقيدة راسخة لا تتزعزع ولا تلين كما وأن ملابساته الحوادث قد زودته برصيد من الشجاعة لا ينفد حتى قال الحجاج عنه يوماً كما حدثنا الطبري :

« لله دره اي رجل دينا ومسعر حرب ومقارع أعداء »



(١) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٥٤ .

(٢) تعليقة على وقعة صفين لنصر بن مزاحم .



عصره

عاصر المختار في طوره الأول عمراً وعثمان وشاهد — بلا ريب — الاحداث التي قام بها هذان الخليفتان ولاسيما أيام عثمان فقد كان في هـذا الدور انضج فـكراً وارهف ذهناً ينهد الى العقد الثالث من حياته رأى محنة الخليفة من جهة ومحنة المسلمين من جهة أخرى حتى أدت النتيجة الى واقعة الدار المشهورة وقتل عثمان .

اجل . لقد رأى كل ذلك المختار وليس هو بعيداً عن منبع هذه الاحداث ما دام في المدينة (بيئته الدراسية) ثم يقتل عثمان وتنتهي مأساته وكان للمسلمين أن يجتمعوا على بيعة الامام علي « ع » فبويع له ، لا اشك أن صاحبي كان أحـــد المسلمين الذين بايعوا علياً في المدينة ثم يتوارى المختار فلا نكاد نلمحه في غمرة الحوادث التي نجمت بعد البيعة ، فلم يحدثنا التاريخ عنه في واقعة الجمل بان له مشاركة فعلية كما لعمه (سعد بن مسعود) تلك الوقعة التي أذكت اوارها « عائشة بنت ابي بكر » ولا في وقعـة صفين التي كانت ايضاً صدى لصيحة عائشة في حرب الجمل ، ربما يكون مع عمه في هاتين الوقعتين وربما قد تركه في المدينة أو المدائن ، وعلى كل حال فقد كان في هذا العصر ونعني به عصر الامام برمق الدولة الاسلامية عن كثب فيشاهدها وقد تحقق فيها العدل وانتشرت المساواة والحرية بين المسلمين فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، « إن اكرمكم عنـد الله اتقاكم » فالمسلمون جميعاً سواسية كاسنان المشط لا فضل بين الحر والعبد ولا بين السيد والمسود .

وأعتقد أن الدولة الاسلامية لو بقيت بعيداً عن الاحزاب والاطماع لاصبح المسلمون اليوم فى رغد من العيش ولتحقق لهم العـــدل والحرية في الشعوب على السواء ولكن شاء الحزب الأموي أن يكيد للامة الاسلامية من طرف خفي — من ايام عمر حتى قتل عمر وقاتله غلام المغيرة بن شعبة وهو حليف بني امية — ثم ظل يعمل تحت الخفاء والقستر ويشنها حرباشعواء أقل ما توصف به انها فرقت كلمة المسلمين وجرت فى اذيالها حروبا دموية بين الطالبين والامويين الى أمد بعيد وأخيراً افضت الى مقتل الامام علي (ع) وهو يستقبل الصلاة ، ويمضي دور علي (ع) ويسدل الستار على مسرح الخلافة الاسلامية . وكان المختار آنذاك بالمدائن لا يبارح عمه إلا أن تدعو الضرورة فيأتي الكوفة بالخراج الى الامام . وكانت هـذه الصحبة التي انفقها المختار في عهد الامام قد أثرت فيه أثراً كبيراً من الموالاة والتفاني لآل البيت .

ثم يظهر على المسرح (معاوية بن ابى سفيان) ويستقبل المسلمون — ومنهم المختار — عهداً لم يألفوه فهـذا (ابن هند) يتطاول الى الخلافة ويدعو الى نفسه فى كافة ارجاء الدولة وقــد قضى على حركة الامام الحسن (ع) الذي بويع له بعد ابيه مباشرة .

أينسى المسلمون موقف أبيه ابي سفيان وعدائه السافر للنبي (ص) ذلك العداء الصريح منــذ بدء الدعوة الى عام الفتح وكان يؤلب قريشاً ويحرضها على قتال النبي (ص) بكل ما أوتي من حول وقوة ، ثم أسلم عام

الفتح ولكن اسلامه (لم يكن إسلام القلب والجنان بل اسلام الشفة واللسان)

ولما أسلم بهذا الاسلام الضعيف تحت حد السيف ورأى جيوش المسلمين قال للعباس : يا ابا الفضل لقد أصبح ملك ابن اخيك عظيما (١)

وظل أبو سفيان على هذه الشاكلة يعتقد ان غلبة الاسلام هي غلبة على كبريائه ، وقصة واحدة تغنينا عن الاطالة في هـــذه اللمحة هي كلمته النكراء في مجلس الامويين .

(تلاقفوها يا بني امية تلقف الكرة فو الذي يحلف به ابو سفيان لا جنة ولا نار وإنما هو الملك) ، اما زوجه هند ووالدة معاوية فيكفيها خسة وضعة موقفها من مصرع (حمزة بن عبدالمطلب) حين راحت تبقر بطنه ثم تستخرج كبده وتصنع فيها صنيعها المعروف .

فهذا والد معاوية بن أبي سفيان وتلك هند بنت عتبة امه ، ترى كيف تواجه الدولة الاسلامية هذا الخليفة الجديد ؟

ولو أن معاوية سار بسيرة الخلفاء وانتهج منهجهم كان خليقاً أن يظفر بغاية من هذا الملك العضوض ولكنه خرج على عنوان الخلافة واحاط نفسه بابهة الفرس والرومان واتخذ لنفسه الحرس الملكي والمقصورة الملكية ، وقد بذل في سبيل تركيز ملكه وتوطيده كل غال ورخيص واباح لنفسه جميل الوسائل المغرية ـ وان كانت محظورة ـ فقضى على كل حركة قامت ضده وسعى اولا في أماتة بيعة الحسن « ع » (٢) ورشا زعماء

(١) تاريخ مختصر الدول : لابن العبرى .

(٢) تروى رواية فى نقد المختار بهذه المناسبة سنتعرض لها .

القبائل بالمال ، وكانت نهاية الرواية التي تمت بينه وبين الحسن « ع » هو عقد الصلح ولكن بشروط ابى معاوية أن يفي له بواحد منها كذلك لم يستقر معاوية ويرى الامام حياً على هذه الارض فاغرى زوجته (جعدة بنت الاشعث) ـ في اصح الروايات ـ ومناها بالزواج من يزيد ، واغدق عليها المال وانتهت قصة الحسن بهذه النهاية المؤلمة .

وقد كانت سياسة معاوية تبتني على قاعدة (الغاية تبرر الواسطة) فمها كانت الواسطة محظورة عند العرف العام تكون مباحة في عرف معاوية فقد تصدى الى شيعة علي (ع) وأخذ يعمل فيهم السيف وقتل كثيراً منهم على الظنة والتهمة ، يحسب أن القضاء على هؤلاء يزيد في توطيد ملكه وتثبيت عرشه ففتك بحجر بن عدي الكندي ورهط من قبيلته واعتدى على عمرو بن الحمق الخزاعي فقتله الى كثير من هؤلاء الذين ذهب دمهم هدراً حتى شاع وذاع بين جنوده (ان لله جنوداً من عسل) يشيرون بهذه الكلمة ان من يغضب عليه معاوية يسقيه شربة من عسل مسموم .

واذا استطاع معاوية بهذه الخطة الهوجاء أن يجتذب اليه قلوب بني امية وبعض المرتزقة من الناس فلم يتمكن أن يكون له شيعة يؤمنون به كخليفة شرعي وهذه الظاهرة واضحة لا مراء فيها حتى أن بني امية انفسهم كانوا ناقمين على معاوية لولا ما بذله لهم من مال وما احاطهم به من عناية فكانت الحجاز تبغض معاوية بغضاً ظاهراً ، اما الكوفة فهي اظهر الثغور عداء لبني أمية عامة وذلك يرجع لأمرين :

اولا ـ ان الكوفة كانت علوية المبدأ ، وقد بذر فيها الامام علي روح التشيع يوم كانت عاصمة المسلمين بدل المدينة عام ٣٦ هـ حتى يقال إنه مر المختار ومعه (المغيرة بن شعبة) على سوق الكوفة فقال المغيرة .. يا لها غارة ويا له جمعاً ، اني لأعلم كلمة لو نعق بها ـ ولا ناعق لها ـ لاتبعوه ولا سيما الاعاجم الذين اذا القي اليهم الشيء قبلوه ، قال وما هي يا عم ؟ قال يستأدون بآل محمد (ص) ، فنستظهر من ذلك أن الكوفة كانت الاغلبية الساحقة فيها هم الشيعة وهم عنصر جدير بالاهتمام .

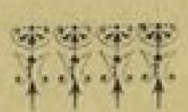
ثانياً ـ تلك السياسة التي سار عليها معاوية حتى قتل كثيراً من الشيعة الكوفيين ، وهذا الرجع العكسي عادة يحدث رد الفعل الذي كان من أهم الأسباب لسخط الكوفة على معاوية وبنى امية في جميع الثورات

كان المختار في أغلب الظن مقيما بالكوفة ولا سيما في آخر عهد معاوية وكانت عنده ضيعة خارج الكوفة يستثمرها ويلتمس منها اسباب الرزق كذلك كان لديه عدد كبير من الرقيق ، اما منزله فقد كان قريباً من المسجد وهو الذي نزل فيه (مسلم بن عقيل) اول قدومه الكوفة فالمختار على كل حال كان بتلك الآونة شخصيـــة لها في نفوس عارفيه منزلة ومكانة ، وقد كان غير بعيد عن هذه الاحداث التي نجمت في الكوفة فكان أسبق انسان يذيع فضائل آل البيت ويذكر مساوىء بنى امية بيد انه على تستر وخفاء حيث الحكم الصارم والسياسة الجائرة ، وكأنه كان ينتظر الثورة الجامحة ضد هذا التيار الجارف ولكنه لا يدرى

متى تكون ؟! ومتى يتحقق ذلك اليوم فنراه يسأل (معبد بن خالد الجدلي) وكأنه يخاف فوات الفرصة :

(يا معبد ان أهل الكتب ذكروا انهم يجدون رجلا من (ثقيف) يقتل الجبارين وينصر المظلومين ويأخذ بثار المستضعفين ثم وصف اهل الكتب صفته فلم يصفوا صفة في الرجل إلا وهي في : غير خصلتين . انه شاب وقد جاوزت الستين من عمري وانه رديء البصر وأنا أبصر من عقاب . فقال (معبد) : فان ابن الستين والسبعين عند أهل ذلك الزمان شاب . واما بصرك فما تدري ما يحدث الله تعالى فيه)(١)

إذاً كان يعلم من نفسه الثورة ضد الظلم والطغيان ولكن الجو بعد بعد لم يمهد له طريق الثورة حتى اذا هلك معاوية واستخلف يزيد وكان ان ثارت الكوفة تطلب الحسين «ع» في اصرار وهنا يبرز المختار ويظهر على مسرح الحياة السياسية .



(١) اخذ الثار لابن نما

فى الميدان السياسى

سبق أن عرفنا بان المختار كان في نهاية عهده الماضي أن تأثر تأثراً قويا بنتيجة تفاعله مع عصره الأمر الذي أدى الى سخطه الشديد لبني امية ، ولكنه لم يظهر على مسرح الحياة ولم يشترك في تلك الأحداث حتى تظهر لنا صورته واضحة الألوان والظلال ، ولكنه هنا حين يعمل في الحياة السياسية وحين يشترك مع مسلم ويدخل السجن ومن ثم يرحل الى الحجاز ليبايع عبدالله بن الزبير تظهر لنا معالم شخصيته ، فنحن اذاً يجب أن ندرسه على ضوء هذه الاحداث التي اعتبرناها اول دخوله (في الميدان السياسي).

كانت الكوفة — كما رأيناها — اظهر الثغور عداء لبني امية وكانت متأهبة الى الثورة فراحت تطلب الحسين في اصرار وما كان من الحسين وقد بلغته من الكتب ما يقرب من اثني عشر الف كتاب ، فقرر عند ذلك السفر الى العراق ولكنه بعث ابن عمه مسلم بن عقيل ليستوثق من البيعة ، واقبل مسلم .

وهنا يجب أن نلاحظ ان مسلماً لم يشأ أن يختار بيتاً لاذاعة دعوته غير بيت المختار فنزل فيه ، وليس نزول مسلم في بيت المختار بالشيء اليسير اذا نظرناه من وجهة الظروف الراهنة آنذاك ومن وجهة دعوة جديدة يراد بها قلب نظام جماعي يدين بالولاء لبني امية فهو على اية حال يعطينا صورة واضحة عن عقيدة هذا الرجل الذي جعل من بيته ندوة ينشر منها دعوة الحسين (ع) بالرغم من كثرة الشيعة وولائهم للامام .

نزل (ابن عقيل) في بيت المختار واخذ يبشر بالدعوة الجديدة

وكانت الشيعة تختلف اليه بين حين وحين وهو يقرأ عليهم كتاب الحسين وهم يبكون فرحين ثم يعدونه من انفسهم النصرة والقتال حتى بلغ من بايعه اثنا عشر الفا وقيل اكثر من ذلك ، اما في تقدير (ابن كثير) فثمانية عشر الفاً وكان من جملة من بايعه ودعا الناس اليه هو المختار ، حدث هذا والنعمان ابن بشير الوالي الرسمي ليزيد بن معاوية ولكن جماعة من بني امية لم يسكتوا عن هذه الدعوة فكتبوا الى يزيد بجلية الحال وما كان من يزيد الا ان يعث (عبيدالله بن زياد) واليه على البصرة ويضم اليه الكوفة .

ثم تدور الدائرة واذا بعبيد الله بن زياد اميراً على الكوفة (وسيفه وسوطه على من ترك أمره وخالف نهيه) واذا بالنعمان بن بشير ينقم عليه يزيد لسكوته عن مسلم حتى قوي أمر الشيعة ، واذا باهل الكوفة الذين بايعوا مسلماً بامس القريب يتخاذلون عنه بين مخذل وخائف ومرتاب

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المقام ، ان هناك جماعة من الشيعة الكوفيين كانوا ينتظرون الفرصة للوثوب ـ كان أحدهم المختار ـ في حكومة النعمان ويقصونه عن الولاية ولكن مجيء ابن زياد كان سبباً في خنق هذه الحركة ، حيث أن اول عمل قام به هو القضاء على هذه الحركة ثم عمد فثبط عزائم قادتها وهناك ظفر بهم فسجنهم في بيوتهم وجعل عليهم رقابة شديدة ، ومنهم من غيبة في غياهب السجن .

لم يكن يعلم المختار بهذا الحدث ، ولم يدر بخلده ان يتخاذل الناس عن مسلم ثم يسلمونه للسيوف وهم يتفرجون لأنه كان كما يروى في قرية له

خارج الكوفة تسمى (لقفا) وحين علم بذلك اقبل بمواليه وطائفة من قبيلته لتلافي الموقف ومعه (عبدالله بن الحارث) وهو يحمل رايته الخضراء حتى انتهى به المطاف الى (باب الفيل) وهو (أحد أبواب مسجد الكوفة) ولكنه رأى فور وصوله ما لم يكن يقدر أن يراه ، رأى الكوفة وهي تموج بحركة قوية عنيفة وعلى رأسها السفاح (عبيدالله بن زياد) يصفعها بالسيف والسوط ، فماذا سيكون موقفه ضد ذلك التيار الجارف ؟ اتراه يقاتل بتلك الجماعة الضئيلة ؟.. كلا ، ولكنه الاستسلام والخضوع للامر الواقع وليدخر ما عنده من قوى الى فرصة اخرى ، فلبث وهو لا يدري ما يصنع حتى اشير عليه أن يجلس تحت راية (عمرو بن حريث) - راية الامان - ليأمن على حياته من هذا الطاغية فقبل مشورة ذلك الرجل الذي أشار عليه بالدخول تحت الطاعة والخضوع ولكنه قال ما يدل على تأثره وانزعاجه (أصبح رأيي مرتجناً لعظم خطيئتكم) واكد عمرو هو الاخران يشهد له بالبراءة ان بلغ الامير عنه ما يريب .

ورأى الصبح حين أسفر المختار وقد مثل امام ابن زياد .

ابن زياد : انت المقبل في الجموع لتنصر ابن عقيل وتتولى ابا تراب وولده

المختار : اما علي واولاده فاني احبهم لمحبة رسول الله ، واما نصرتي لمسلم فلم افعل ، فانبرى عمرو عند ذلك وشهد له بالبراءة ، ولكن ابن زياد ابى أن يستجيب لهذه الشهادة فيخلي سبيله ، بل عمد الى سوط واستعرض به وجهه ضربا حتى ادماه ، كما اصاب عينه فشترها ، وهـــذا المشهد العدواني

لا شك قد اثر في نفسه تأثيراً قويا واوحى اليه بالقسوة والانتقام وبخاصة من (ابن زياد) الذي حاول ان ينفذ فيه القتل ولكن شهادة عمرو خففت من حدة الموقف فامر به فغيب .

في غيابة السجن :

والى هنا عرفنا ان السبب الرئيسي لسجنه هو قيامه بهذه الحركة السياسية ضد الدولة ونصرة لمسلم غير ان أحد المؤرخين (١) يعزو ذلك الى سبب آخر ، ومؤداه ان ابن زياد حين خطب في المسجد عقب مقتل عبدالله بن عفيف الازدي ذلك الذي غضب عليه في جرايته بحضرته واخذ ينال من الحسين ويبرر صنعه في واقعة كربلاء ، ولكن المختار يبرز اليه من بين الصفوف ليرد عليه في عنف وقسوة ويكذب مقالته ، فيكون مصيره – كما تحدثنا الرواية – أن يدخل السجن ، وكيفما كان السبب في ذلك فمن الثابت انه قد دخل السجن في هذه الفترة وهو غير آيس من العودة الى الحياة الحرة لمواصلة ثورته لأن البطل الذي يقوم بما قام به المختار من اعمال جبارة لا يمكن أن يتسرب اليه اليأس والنكوص ، فاذا عرفنا بانه لم يكن رجلا عاديا ولا من سائر الناس ، أدركنا بانه رجل مليء بالثقة والاطمئنان شأنه في ذلك شأن بقية الابطال الثائرين فمن المؤكد بانه يدري بوثوق بان الحركات السياسية معرضة للفشل كما انها معرضة للانتصار ، وهو يدري بانه هو وأمثاله ينبغي لهم أن يعيدوا الكرة مرة اخرى اذا هم فشلوا في حركاتهم

(١) جاءت هذه الرواية في مقتل الخوارزمي ج ٢ ص ١٧٩ .

ومن شأنهم انهم يحاولون مرة بعـــد اخرى حتى ينتصروا ، اما اليأس والتراجع فهما من صفات الجبناء المغفلين لا من صفات الابطال الناهضين ، فهو اذاً كله أمل ورجاء في المستقبل .

لهذا نحن نرى أننا لا نعدو الواقع ـ وان لم يذكره التاريخ ـ إذا تصورنا المختار في السجن وهو يقضي الاشهر التي قضت بها عليه السلطة الموقتة انه كان ينظر بروحه ويطمح الى المستقبل المشرق بالظفر ، وانه ينظر الى نفسه نظرة الاطمئنان والى الزمن الذي يمر عليه نظرة الانتظار ، فهو على اية حال صامد ينتظر الساعة التي سوف يخرج بها ويعمل في الحياة السياسية الثورية ، آملا أن يحقق ذلك بعد أن يعمد الى الخلاص من السجن حين تنتهي هذه الظروف أو تأتي فرصة تسمح له بالخروج ، فهو واثق من انه يحطم اغلال السجن ويعيد العمل في الحقل الذي نذر نفسه من اجله وهو الطلب بثأر الحسين .

وظل بهذه الخواطر ونحوها وهو في محبسه بـ (قصر الامارة) (١) حتى انبثقت في ذهنه فكرة كانت هي طريق خلاصه من السجن ، وهي أن يكتب الى عبدالله بن عمر ليقوم في اطلاق سراحه ، يقول المؤرخون ان شقيقته ـ صفية ـ

---

(١) قصر الامارة ، شيد في عهد سعد بن ابي وقاص فكان يعرف بقصر سعد وبقصر الامارة ثم صار منزلا خاصاً الولاة والامراء والملوك وبقي الى عام ٧١ هـ فهدمه عبدالملك وكان طول القصر ١٧٠ متراً وعرضه ١٧٠ متراً وفيه ابراج اربعة قطرها ستة امتار ومحيطها ١٤ متراً .

مقتبس من تاريخ الكوفة ص ٦٧

قامت بدورها في هذا المضمار بنصرته فحرضت زوجها أن يكتب الى يزيد ابن معاوية بهذا الكتاب .

« .. اما بعد فان عبيدالله قد حبس المختار وهو صهري وانا احب أن يعافى ويصلح من حاله فان رأيت ـ رحمنا الله واياك ـ ان تكتب الى ابن زياد فتأمره بتخليته والسلام .. » .

وكتب يزيد الى واليه (عبيدالله) بهذا الكتاب :

« ... اما بعد فخل سبيل المختار حين تنظر في كتابي هذا .. »

وحالما وصل الكتاب الى واليه أمر باحضار المختار واطلق سراحه ولكنما قال له .. (قد اجلتك ثلاثاً فان ادركتك بالكوفة فقد برئت منك الذمة) .

وخرج المختار بهذه الصورة التي وصفناها من محبس عبيدالله ليتوجه الى الحجاز ولكنه يصادف اثناء الطريق في مكان يدعى (واقصة) رجلا يسمى (ابن عرق) ـ وهو مولى لثقيف ـ فقال هذا الرجل ، مالي أرى عينك على هذا الحال ؟ قال فعل بي ذلك (ابن الزانية) ويعني به (ابن زياد) قتلني الله إن لم اقطع أنامله واعضاءه ارباً ارباً ولأقتلن بالحسين عدد الذين قتلوا بيحيى بن زكريا وهم سبعون الفاً (١) .

وهذه النفسية الثائرة تفسر لنا تماماً ما ادعيناه فيما سبق من انه ينبغي على مثله ان يعيد الكرة مرة بعد اخرى ويعمل في الحياة السياسية الثورية

(١) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٥٩ .

حتى يظفر بالنجاح ، كما انها تلقي علينا اضواء من بيعته وعلاقته .

مع ابن الزبير :

واول ما يبدو لنا ـ قبل الخوض في بحث بيعة المختار لابن الزبير وقبل أن نعرض وجهة نظرنا فيها ـ ان نشير الى ان ابن الزبير كان في تلك الفترة في بداية عهد جديد ودعوة الى الخلافة باسم الطلب بدم الحسين فحينما جاء المختار الى مكة ـ كما يقول الرواة ـ علم ابن الزبير بمقدمه ثم حضر عنده وسأله بدوره عن نفسيات اهل الكوفة وما هم عليه فاجابه المختار جوابا كشف فيه نوايا اهل الكوفة فقال (هم في السر اعداء وفي العلانية اولياء)

فقال ابن الزبير :

« .. هذه والله صفة عبيد السوء اذا حضر مواليهم خدموهم واذا غابوا عنهم شتموهم .. »

وانبرى اليه المختار يقول :

ذرني من هذا وابسط يدك لابايعك واعطني ما ارضى به لأكون لك من الدعاة في الحجاز ، فسكت ابن الزبير وكأنه لم يصادف هوى من نفسه بهذا الشرط الاخير فتركه المختار ومضى الى الطائف حتى انه ليم بعد ذلك فقال:

(واني لما رأيته إستغنى عني احببت أن اريه اني مستغن عنه) .

وصفوة القول فقد بقي المختار عاماً كاملا قضاه في الطائف ثم عاد ثانياً الى مكة وحضر عند ابن الزبير وبايعه .

وهنا يجب أن نلاحظ بدقة أن المختار لم يبايعه كبقية الناس بل كانت

له ميزة خاصة وظاهرة اخرى تتفاوت عن بقية من بايعه نلمسها بالشروط التي أخذها عليه وفرضها هو الآخر على نفسه كعقد من العقود يجب الوفاء به .

والشروط كما يلي :

١ ـ ابايعك على أن لا تقضي الامور دوني .

٢ ـ اكون أول من تأذن له وآخر من يخرج من عندك .

٣ ـ إذا ظهرت استعنت بي على أفضل عمالك (١) .

وهذه الشروط ـ كما تراها ـ محكمة وغاية فى الدقة ، ففى (الاول) ان ابن الزبير لا يقدر أن يبت في أمر من الامور دون أن يأخذ رأي المختار ومشورته فيه ، وفى (الثانى) وهو أن يدخل اول من يدخل عليه ويخرج آخر من يخرج منه ، ومعناه أن يكون وزيره المقرب الذي لم تخف عليه خافية من امور الدولة الضيقة النطاق ، وفي (الثالث) أن يستعين به على عمله متى ظهر ـ ابن الزبير ـ كخليفة على المسلمين ، ويغلب على ظني ان هذا الشرط إنما اخذه المختار على ابن الزبير ليوليه ثغر الكوفة فيثأر من قتلة الحسين ولكن ابن الزبير التوى عليه بهذه الشروط فتركه المختار وانصرف .

ومهما يكن الأمر ، فان هذا لم يبرر موقفه معه وبيعته له بالشكل الذي نرتضيه في الوقت الذي نعلم يقيناً ان ابن الزبير كان عثماني العقيدة وهذه

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤٥ .

الحقيقة ثابتة لا مراء فيها والمختار يناقض هذه العقيدة تماماً فهو علوي المبدأ والعقيدة فكيف يجوز له - والحالة هـــذه - أن يبايع ابن الزبير ويخضع لسلطته ويدخل تحت طاعته !

ويمكننا أن نلتمس عذراً للمختار في انضمامه الى ابن الزبير والانقياد اليه ، وهو انه كان يعلم عداءه للامويين وبغضه لهم وحقده وحنقه عليهم بصورة لا تقبل الجدل ، فانضم اليه ليقوي بذلك الحزب الثائر على السلطة الاموية لا ايماناً بقضية ابن الزبير ولا حباً وإخلاصاً له .

ولنستوضح هذه الحقيقة علينا أن نلاحظ موقفه معه ضد الدولة الاموية ومحاربته لهم محاربة الابطال وذلك حينما جهز يزيد حملة قوية لقتال اهل مكة تحت قيادة الحصين بن نمير خليفة مسلم بن عقبة فكان يقاتلهم وهو يقول :

(إلي إلي أنا ابن ابي عبيد بن مسعود وأنا ابن الكرار لا الفرار أنا ابن المقدمين غير المحجمين ، إلي يا أهل الحفاظ وحماة الأوتار) فحمى الناس يومئذ وابلى وقاتل قتالا شديداً .

فموقفه هذا - مع ما نعرفه من خطته ونفسيته الثائرة التي تدفعـــه الى اتخاذ جميع الوسائل في سبيل تحقيق هدفه وهو - الطلب بثأر الحسين - كل ذلك يدلنا بجلاء ووضوح من انه لم يبايع ابن الزبير إلا لكونه خارجا عن طاعة بني امية ، يضاف الى ذلك ان المختار لم يكن بالرجل العادي الذي يعترف لابن الزبير بالخلافة حتى يمد اليه يده صاغراً ، وهو يعرفه جيداً

ذلك الرجل المالىء المنحرف في عقيدته ومذهبه ذلك الرجل الذي شب على عداء آل محمد (ص) حتى ظهر العداء فيه واضحاً حين ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله، اثناء خطبته حتى نقده الناس ولاموه فقال كلمته النكراء التي تعرب لنا عن مدى عقيدته .

(إن له ـ اي النبي (ص) ـ أهل بيت سوء اذا ذكرته اشرأبت نفوسهم اليه وفرحوا فلا احب أن أقر أعينهم بذلك) .

إذا كانت بيعة المختار لابن الزبير وسيلة لا غاية وسيلة ، يهدف بها الى تحقيق مآربه وآماله ولذا حينما علم ان ابن الزبير لا يحقق ما يصبو اليه ولا ينفذ طلباته الاولية ولا يفي له بالشروط التي اشترطها عليه انسحب عنه واخذت الصلة تتضاءل وتخبو فلم يبق معه غير خمسة اشهر ثم فارقه بعدها لانه لم يجد عنده ما يشبع رغباته الاولية ، غير انه لم يفارقه ليظهر له تأثره وانفعاله بل قال له « اني لأعلم قوما لو أن لهم رجلا له رفق وعلم بما يأتي ويذر لاستخرج لك منهم جنداً تقاتل بهم اهل الشام . فقال من هم ؟ قال شيعة بني هاشم بالكوفة ، قال كن انت ذلك الرجل »(١)

ومن هنا نعلم صحة قول من يرى من المؤرخين (٢) تولية المختار الكوفة من قبل ابن الزبير حتى يقال انه اتهم بدعواه الى نفسه فعزله وولى مكانه غيره ونحن نرى من مراجعة المصادر الموثوق بها ، ان ابن

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٨٣ .

(٢) رغبة الآمل ص ٢٠٤ .

الزبير لم يول المختار الكوفة في حال من الاحوال ، وإنما قدمها المختار وعليها إذ ذاك عبدالله بن يزيد واليه على الكوفة ثم عزل هذا وولى مكانه عبدالله بن مطيع وعلى اية حال فمن المؤكد بان صاحبنا إنصرف عنه . وهو حانق عليه وفي نفسه منه أشياء وأشياء وهو يقول — كما يقول المدائني —

ذو مخاريق وذو مندوحة ... وركابي حيث وجهت ذلل
لا تبيتن منزلا تكرهه ... واذا زلت بك النعل فزل

* * *

والآن وبعد هذه الدراسة التي ذهبنا بها مع المختار متتبعين خطواته خطوة خطوة ، وقد وضحت لنا — كما نعتقد — عبقرية هذا الرجل وحنكته ونشاطه السياسي يجب علينا بعد هذا كله أن ننتقل معه الى الكوفة فقد أوشك على السفر ليعيد نشاطه مرة اخرى وليجد في الكوفة ما يصبو اليه من النهضة والأخذ بالثأر من قتلة الحسين .

الى السجن

لم يكد يصل المختار الكوفة ليستأنف العمل من جديد وليذيع دعوته على الشيعة الكوفيين حتى راح يلهب عزائمهم إلى النضال والثورة ورائده الطلب بثار الحسين ، وقد استطاع بفضل ما اوتي من لباقة وحنكة ان يضم اليه حزبا قويا ويجمع حوله عدداً غير قليل ، غير ان فريقاً من أذناب بني امية لم يرتضوا هذه النغمة التي رددها المختار في النوادي والمجتمعات وفي منزله فعمدوا الى ايقاف نشاطه وشل حركته حتى ظفروا بامنيتهم ، وراح المختار الى السجن نتيجة شغبهم ونفاقهم .

وفي هذه المرحلة لم يترك الدعوة في الأخذ بالثأر بل كان وهو في سجنه يتلوى تحت سياط الظلم والجور ويعاني مرارة السجن من آل الزبير ، ونراه يكتب الى التوابين وقد عادوا مثقلين بالهزيمة انه هو رجلهم الوحيد الذي يبلغ بهم الغاية ، أو يدخل عليه حميد بن مسلم فيتدفق ثورة وانتقاماً ويقول :

« اما ورب البحار والنخل والأشجار والمهامه القفار والملائكة الابرار والمصطفين الاخيار لاقتلن كل جبار بكل لدن خطار ومهند بتار في جمع من الانصار ليسوا بميل اغمار ولا بعزل اشرار ، حتى اذا أقمت عمود الدين ورأبت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وادركت بثأر النبيين ، لم يكبر علي زوال الدنيا ولم أحفل بالموت اذا اتى » .

فتأمل هذا الاسلوب الصارخ الذي انفجر كالبركان ثورة وحماسة ودل على اعتداد في النفس وارادة قوية . كما دل ـ في الوقت ذاته ـ على فن

من فنون الأدب لما تضمنه من صناعة الاسجاع ، والسجاعة ـ كما يعرف البيانيون ـ باب من ابواب الأدب له في حقل (البيان) موضوعية كبيرة وهي ـ لما تتضمنه من كل فاصلة أو فاصلتين بقافية واحدة ـ يكون لايقاعها على السمع ولأثرها في النفس وقع جميل ، على ان (الشهرستاني) في (الملل والنحل) لم يرتض هذا الاسجاع من المختار ويتهمه بالاسفاف والركة في جميع فواصل الفكرة ، ونحن لا نرتضي هذا القول مطلقاً لما نجد في هذه السجاعة التي سمعناها وتذوقناها من القوة والاداء بحيث تتفق مع الموقف الذي كان فيه والذي يستوجب اثارة الهمم والعزائم في هذا الاسلوب الخطابي المثير ، يضاف الى ذلك ان هذا الاسلوب تبدو فيه الصورة واضحة في جميع خطوطها والوانها حتى يسمو ـ في نظرنا ـ الى مصاف العباقرة في هذا المضمار ، ولعلنا نعرض في ثنايا الكتاب نماذج من هذه الصور الفنية ، حتى يقف القارىء الكريم على ما ندعيه ونذهب اليه ، ومهما يكن الأمر فقد فتق ذهنه هذا السجن فاجاد في هذه الصناعة إجادة ممتازة واسمعنا أدباً عالياً كما تجلت بذلك مواهبه الأدبية وعبقريته في هذا الميدان ، وكيفما كان فقد ظل المختار في السجن وهو يحاول الخروج لانهاء مهمته ، وصادف في الاثناء رجوع التوابين من الجزيرة فاشلين في ثورتهم فكتب اليهم رسالة يدعوهم الى نصرته وليشفعوا له بالخروج .

(.. اما بعد فان الله اعظم لكم الأجر وحط عنكم الوزر بمفارقة القاسطين وجهاد المحلين ، إنكم لم تنفقوا نفقة ، ولم تقطعوا عقبة ، ولم تخطوا

خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة وكتب لكم حسنة ، فابشروا . فاني لو خرجت اليكم لجردت سيفي فيما بين المشرق والمغرب من عدوكم السيف باذن الله فجعلتهم ركاما وقتلتهم فرداً وتوأما ، فرحب الله لمن قارب واهتدى ولا يبعد الله إلا لمن عصى وأبى والسلام على من اتبع الهدى ..)

وقرأ التوابون هذه الرسالة فارسلوا اليه رجلا يقول له :

... قد قرأنا الكتاب ونحن حيث يسرك فان شئت ان نأتيك فعلنا ، ففرح المختار وأثلج قلبه وأدرك انه قد ظفر بانصار جدد من الشيعة وهم التوابون كما وانه قد شكر لهم هذه العناية والحفاوة به وقال انه يوشك أن يخرج من السجن فلا حاجة الى وساطتهم في هذا الأمر لأنه كان قد بعث الى عبدالله بن عمر كتابا ليشفع له بالخروج وهذا هو نص الكتاب :

(... اما بعد فاني قد حبست مظلوماً وظن بي الولاة ظنوناً كاذبة فاكتب في يرحمك الله كتابا عسى الله أن يخلصني من ايديهما بلطفك وبركتك ويمنك والسلام)

وكتب عبدالله من فوره بهذا الكتاب الى الولاة :

(... اما بعد فقد علمتما الذي بيني وبين المختار من الصهر والذي بيني وبينكما من الود فاقسمت عليكما بحق ما بيني وبينكما لما خليتما سبيله حين تنظرون في كتابي هذا ..)

وخلص المختار من السجن للمرة الثانية ، بهذه الصورة التي وصفناها ولكنما طلب اليه الولاة الذين حكموا عليه بالسجن هذه المدة التي قضاها

كفلاء يضمنونه كي لا يثور او يقوم في حركة تصطدم ومصلحة الدولة ، فتقدم اليه عشرة من ثقاة الكوفة فضمنوه وتعهدوا امام الولاة بعدم قيامه في اية حركة ، كذلك لم يكتفوا بهؤلاء الكفلاء حتى اخذوا عليه عهدالله وميثاقه وحلفوه (بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة والرحمن الرحيم) لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما من سلطان فان هو فعل واحنث كان عليه الف بدنة ينحرها لدى تاج الكعبة ومماليكه كلهم ذكرهم واناثهم احرار فحلف لهم بذلك وانصرف الى منزله .

واجتمع اليه جمع من الشيعة فسأله أحدهم عن قسمه ذاك . فقال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة هزء وسخرية .

(... قاتلهم الله ما أحمقهم حين يرون اني افي لهم بأيمانهم هذه ، اما حلفي فاني اذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها ادع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير واكفر عن يميني وخروجي عليهم خير من كفي عنهم ، واما هدي الف بدنة فهو أهون علي من بصقة ، واما عتق مماليكي فوالله لوددت انه تم لي ثم لم املك مملوكا ابداً ..)

ولنترك المختار في الكوفة يجمع اليه أشتات الشيعة من هنا وهناك وليكون له بالتالي عدداً كبيراً يحارب بهم عمال ابن الزبير وينتصر ، ولندرس الآن أول نهضة بالكوفة هي نهضة التوابين ثم نعود فندرس نهضته هو على ضوء التاريخ ، والسبب لهاتين النهضتين مزدوج من الأخذ بالثأر ومن كراهية الحياة بالذل والاضطهاد وتكون دراستنا عن هذه الحركة بشيء من التفصيل حتى نستطيع على ضوءها أن نتفهم بجلاء الغاية التي نهض من اجلها المختار .

التوابوت

حركة التوابين كانت نتيجة حتمية ورد فعل لما صنعه يزيد في معركة كربلاء . وكانت هذه الحركة التوابيـة والتي اندلعت نيرانها بسرعة هي نفسها التي أخمدها (ابن زياد) في عهد (مسلم بن عقيل) . وحينما قتل الحسين بدأت هذه الفكرة أو الحركة تتطلع مصطبغة باسم « التوابين »

حيث رأى هؤلاء أنفسهم فجأة يحزهم وقر النـــدم في تأخرهم عن نصرة الحسين فنذروا أرواحهم هــــذه المرة قرابين لتجزر في مذبحة عظيمة تعرف بـ (عين الوردة) وهي رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة . ولم يسلم من هؤلاء غير جماعة إستطاع رفاعة بن شداد ـ خليفة سليمان بن صرد ـ ان يرجع بهم الى الـكوفة .

ففي العام الذي قتل فيه الحسين وهو عام ٦١ هـ بدأت الحركـة ولـكنها لم تنشط حتى دخل عام ٦٥ هـ وفي هذه الفترة كانوا يجتمعون في منزل (سليمان بن صرد) فيلقون الخطب الحماسية التي تثير نشاطهم ويودعون ما يجمعونه من آلة الحرب والأعتدة في منزل (عبدالله بن وآل) فهذا ـ مثلا ـ (سليمان بن صرد) زعيم الحركة وصاحب النبي وقريب الامام علي (ع) ـ والعضو المهم في الحزب السياسي الذي عقـده الامام الحسن (ع) في يثرب ـ وقد ساهم مساهمة عظيمة في وقعتي الجمل وصفين يرى هذا الشيخ نفسه في بلبلة نفسية لانه قد قصر عن نصرة الحسين في الوقت الذي كان معذوراً فيه من الوجهة الدينية ولا يتحلل من هـذا الأثم بغير التوبة وتزكية نفسه بالقتل فيقف خطيباً ويقول :

(انا كنا نمد اعناقنا الى قدوم آل البيت نمنيهم النصرة ونحثهم على القدوم فلما قدموا ونينا وعجزنا واذهلنا حتى قتل فينا ولد حبيبه وسلالته وبضعة من لحمه ودمه اذ جعل يستصرخ ويسأل النصف فلا يعطى … اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل ودريئة للرماح .. ألا انهضوا فقد سخط الله عليكم ولا ترجعوا الى الحلائل والابناء حتى يرضى الله .. ولا أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله .. ألا لا تهابوا الموت فما هابه أحد قط إلا ذل وكونوا كبني اسرائيل إذ قال لهم نبيهم (الا إنكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم .. واقتلوا انفسكم)

وعلى هذا الغرار بقية زعماء التوابين من النشاط والحركة المستمرة والتحمس الشديد ولو ترى (المسيب بن نجبه) وهو ثاني بطل عرفته هذه المعركة وهو يقوم على الحشد خطيباً لعرفت مدى تأثر هذا الزعيم وانفعاله في القعود عن نصرة الامام ..

(قد كنا مغرمين بتزكية نفوسنا فوجدنا الله كاذبين في نصر ابن بنت نبيه وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله واعذر الينا فسألنا نصره فبخلنا عنه بانفسنا حتى قتل الى جانبنا لا نحن نصرناه بايدينا ولا جادلنا عنه بالسنتنا ولا قويناه باموالنا ولا طلبنا له النصرة الى عشائرنا فما عذرنا عند ربنا وعند لقاء نبينا ؟ وقد قتل فينا ولد حبيبه وذريته ونسله .. لا والله لا عذر لنا دون أن تقتلوا من قتله او تقتلوا في طلب ذلك فعسى ربنا أن يرضى عنا).

اما (عبد الله بن الحر الجعفي) الذي ندبه الحسين ابان المحنة وآثر القعود وعدم النصرة فقد عبر لنا عن اسفه البليغ بقوله :

فيا لك حسرة ما دمت حيا ... تردد بين حلقي والتراقي
حسين حين يطلب بذل نصري ... على أهل الضلالة والنفاق
فقد فاز الاولى نصروا حسينا ... وخاب الآخرون اولي النفاق

وهذا آخر يقوم ويدعو الناس الى الخروج ويرى أنه قد صحا من غفوته كأنه كان في غيبوبة عميقة ويسمعنا شعراً مؤثراً :

صحوت وودعت الصبا والغوانيا ... وقلت لأصحابي اجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو الي الهدى ... ـ وقبل الدعا ـ لبيك لبيك داعيا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى ... بغربية الطف الغمام ـ الغواديا
فيا امة تاهت وضلت سفاهة ... أنيبوا فارضوا الواحد المتعاليا

حتى إذا هلك يزيد ودخل عام ٦٥ هـ وكانت فترة ضعف الدولة الاموية فرصة استغلها التوابون لاسيا (وعبدالله بن الزبير) في اوائل عهده بالخلافة .. هب إذ ذاك التوابون ينادون في الكوفة . (يا لثارات الحسين) وخرجوا ساعين نحو قبر الحسين ليتوبوا عنده ولكنهم لم يخرجوا دون أن شاهدوا تأثير صيحتهم المدوية في ارجاء الكوفة . فهذا رجل يقال له (عبدالله بن حازم) يهرع من توه الى منزله فيلبس ثيابه ثم يتقلد سيفه ويركب فرسه ويخرج في شبه جنون حتى يلتحق في موكب (التوابين) وكانت عنده زوجة جميلة واثيرة عنده استوقفته قائلة أجننت ؟! قال لا ..

ولكني سمعت داعي الله فانا مجيبه ثم اطالب بدم هذا الرجل حتى اموت.. فتقول له في ذعر .

اذاً الى من تودع بنيك هذا قال الى الله ثم أردف يقول :

اللهم إني استودعك ولدي واهلي اللهم احفظني فيهم وتب علي مما فرطت في نصر ابن بنت نبيك :

وهذا رجل آخر يسمع تلك الصيحة يقال له (كرب بن عمران) فيثور من حينه ويطلب سلاحه ويركب فرسه فتقف ابنته مذهولة وقد راعها هذا المشهد .

... يا أبتي مالي أراك تقلدت سيفك ولبست سلاحك .

... يا بنية ان أباك يفر من ذنبه الى ربه .

ومهما يكن من امر هؤلاء، فان الكوفة شاهدت ذلك اليوم مشهداً رهيباً وجيشاً لجباً يخرج في طلب ثأر الحسين عدته لا تقل عن خمسة آلاف مقاتل حتى ان (عبدالله بن يزيد) امير الكوفة خشي مغبة هذه الرحلة التي كان يتمناها في قرارة نفسه لاضعاف بني امية والقضاء عليهم باية صورة . ولكنه مع ذلك أشار على سليمان أن يتريث ولا يعجل في الرحيل حتى يقدم (ابن زياد) ضالتهم وقد عهد اليه قتال اهل الجزيرة الذين خرجوا عن طاعة بني امية حتى يكون سليمان وشيعته على اهبة واستعداد أما اذا خرج اليه بهذه الجماعة الضئيلة كان وشيكا ان يخسر المعركة وتذهب اتعابه ادراج الرياح ولكن سليمان ابى ان يصغى لمشورة الوالي وراح يطلب الآخرة تكفيراً لذنوبه .

وسار التوابون وفي مقدمتهم زعماؤهم الخمسه فاظلهم الليل أول ما أظلهم في موقع يقال له (دير الاعور) ولما أسفر الصبح ساروا حثيثاً حتى نزلوا في مكان يقال له (اقساس بني مالك) على شاطىء الفرات وعند الغداة وصلوا قبر الحسين وصاحوا صيحة واحدة وضجوا بالبكاء والعويل وهم يرددون في خشوع ..

اللهم ارحم حسينا الشهيد بن الشهيد ...

اللهم إنا نشهدك انا على دينهم وسبيلهم واعداء قاتليهم واولياء محبيهم .

(اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا صلى الله عليه وآله فاغفر لنا ما مضى منا وتب علينا وارحم حسيناً واصحابه الشهداء الصديقين وانا نشهدك انا على دينهم وعلى ما قتلوا عليه . . وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

وبقي سليمان آخر من بقي من اصحابه يتضرع عند القبر ويستغفر لذنوبه ويأتي آخر وهو (وهب بن زمعة) فيبكي الحسين بابيات (عبدالله ابن الحر الجعفي) كأنه أراد أن يواسي أميره في البكاء واللوعة والتوبة :

تبيت النشاوى من امية نوماً   وبالطف قتلى ما ينام حميمها
فاقسمت لا تنفك نفسي حزينة   وعيني تبكي لا تجف سجومها
حياتي او تلقى امية خزية   يذل لها ـ حتى الممات ـ قرومها

وغادروا المرقد الشريف وبودهم لو أقاموا عنده حتى يطمئنوا

من غفران ذنوبهم وسيئاتهم ولكنهم ساروا وقلوبهم مفرغة فوق أجسامهم بقيادة عميدهم على طريق الانبار حتى انتهوا الى هيت ومن ثم الى قرقيسيا . ووجدوا في هذه المدينة من وجيهم الى خطط حربية هو (زفر بن الحارث الكلابي) كما زودهم في ابل كثيرة وما تحتاجه من علف . ونزلوا بـ(عين الوردة) المكان الذي صرعوا فيه .

وشهد يوم الاربعاء من شهر جمادي الأول عام ٦٥ هـ معركة حامية اشتبك فيها انصار الحق مع انصار الباطل . كان النصر في بداية الحرب يعقد للتوابين ولكنه كان نصراً مؤقتاً فلم يلبث التوابون ـ بعد عدة معارك ـ ان ابيد معظمهم وبقيت فلول منهم استطاع (رفاعة بن شداد) أن ينقذهم من وطيس الحرب ويعود بهم الى الكوفة وظلوا بعد هذه الموقعة قابعين في بيوتهم ينشدون الفرصة التي تتاح لهم في العودة الى القتال ولكن على يد من يحقق املهم ويأخذ بثأرهم فلم يجدوا كفؤاً لرجل تتوفر فيه هذه الخلال غير المختار فبايعوه مخلصين .

* * *

والآن يجدر بنا أن نلقي نظرة عامة على هذه الحركة التي فشلت كما رأيتها في هذه المعركة ولنلمس الدوافع التي دفعتهم لهذه الانتفاضة ضد بني امية ، فنقول :

لا شك بان الدوافع التي اندفعوا وراءها لا تخلوا في الحقيقة من امرين لا ثالث لهما ، أما أن تكون دوافع خارجية بمعنى انهم ثاروا بتأثير عامل خارجي ، او بدوافع نفسية كانت من وحي انفسهم وما الهمته

لهم عقائدهم الدينية ، اما الدوافع الخارجيـة فلم يثبت تاريخيا انهم نهضوا بوحي من آل الزبير الذين كانوا ـ بلا ريب ـ يودون في قرارة انفسهم اضعاف بني امية والقضاء على حكمهم ، كما انه لم يثبت بانهم ثاروا بتحريض من الامام (علي بن الحسين « ع ») لان ظروفه السياسية انذاك وحالته التي تكتنفه بوجه عام لم يسمحا له بان يقوم بتحريض جماعة مثل هؤلاء ، ولا يمكن ايضاً أن يخطر على البال ان حزبا آخر من الاحزاب المعارضة هو الذي حرض التوابين على النهضة ولو كانت الدعوة العباسية في بدايتها لاحتملنا أن تكون هذه الحركة من تحريضها فعلى هذا التقريب لم تكن هذه المحتملات صحيحة ولا قريبة الى الذهن كما رأينا مع العلم بانها لم يذكرها التاريخ بل ذكرناها نحن على وجه التحقيق والتحليل ، وإتماماً لذلك نرى ان احتمالا أخيراً قد يخطر على الذهن يتعلق بسليمان بن صرد ـ زعيم الحركة ـ من انه هو المؤثر الخارجي على هؤلاء الجماعة لاجل أن يستغلها للحصول على السيطرة أو الزعامة ، ولكننا نقول على الفور من أن هذا الاحتمال باطل كسوابقه حيث ان التاريخ لم يذكر لنا هذا الاحتمال الذي يمكن بسهولة ان يتقول به الامويون وهم في سلطانهم بعد ما فشل سليمان في حركته وقتل ، ومعروف ما في الامويين من صفة التهريج والتشنيع على معارضيهم ، فالذين يتهمون الحسين ـ ابن بنت رسول الله ـ بانه خارجي فمن ايسر واقرب ما يكون عليهم أن يتهموا سليمان باشنع التهم وافضعها ، وعلى هذا فان سليمان بريء من احتمال حيازة السلطة او الزعامة

الى نفسه ، وحقيقة الأمر كما نرى انه رجل كسائر التوابين غير انه امتاز عليهم بالحنكة السياسية والدهاء العسكري ، ولذا وقع عليه الاختيار وتزعم الحركة التوابية .

اما الدوافع النفسية التي نرجحها أن تكون الدافع الوحيد للقيام بالثورة ، هي أن المجتمع الكوفي الذي وقف باغليته الساحقة الى جانب يزيد لحرب الحسين لا يخلو من جماعات كانت تود نصرة الحسين وقد اعتقلها يزيد لايقاف نشاطها السياسي وجماعة اخرى تخاذلت عن نصرة الحسين من وطأة الارهاب الخانقة التي هيمنت عليهم ، وجماعة اخرى وقفوا الى جانب يزيد طمعاً في ما له وارضاء لنفوسهم الميالة - بطبيعتها - الى متع الحياة التي تقتنصها في الوقوف الى جانب القوة والسلطان ، وقد جمعت هذه الجماعات الثلاث وحدة الغاية ووحدة الهدف بعد قتل الحسين ورجع كل الى صوابه ورشده وثاب الى عقله وانتبهوا فجأة الى واقع الحال من انهم وقفوا موقفاً غير مشرف من مقتل الحسين وتركوه يقتل الى جانبهم وواقعة الطف بضجتها التي لا مثيل لها في التاريخ قد احدثت في نفوسهم ردود فعل تجلت في الندم والتوبة ، فهؤلاء الجماعات وغيرها رأت ان أحسن ما يرضي ضمائرها ونفوسها أن تقوم بهذه الثورة طلباً للثأر ووفاء بالواجب الذي تقاعسوا عنه لمختلف الاسباب والظروف .

وصفوة القول فقد كان التوابون بنهضتهم مدفوعين بدافع انفسهم نتيجة لرد الفعل التي احدثته واقعة كربلاء .

على ابواب الثورة

لم يكن فشل التوابين في معركتهم الحاسمة بالجزيرة ليضعف من عزيمة المختار او يقلل من نشاطه بل ضاعف ذلك من همته ، وأحاله الى شعلة متأججة الى الثورة والانتقام . وكان لا يفتر يجمع اليه الشيعة ، اما أن يخطب فيهم ليثير فيهم روح الحماس ، او يدعوهم للانضواء في جمعيته التي اسماها (المسعودي) في (مروجه) (الجمعية الحسينية) ، وكان مما ساعده على توسيع نطاق الحركة وذيوعها هو رواج فكرة الكيسانية القائل بامامة محمد بن الحنفية ، فقد كانت هذه الدعوة سائدة في المجتمع الكوفي ، ولها دعاة في كل مكان وقد نجمت هذه الفكرة – كما يقول صاحب فرق الشيعة – من السواد والدهماء وتوسعت تدريجاً حتى شملت بعض مدن الحجاز .

ووجد المختار هوى من نفسه بهذه الدعوة لأنها تتفق ومبادءه وان لم يتبناها كعقيدة ولكنها على كل حال تحقق بعض اهدافه من الدعوة لآل البيت والانتقام من شيعة بني امية ، فضم اليه معظم هؤلاء معتقداً انه سيدك بهم عرش بني امية ويظفر بغايته المرجوة . وكان في كل فرصة تتاح له يحاول أن يثور غير انه لم تكن هناك فرصة حقيقية يستطيع فيها الثورة ، فالكوفة تحت إمرة آل الزبير يتوارثها الولاة واحداً بعد واحد ، فلم يكد يعزل (عبدالله بن يزيد) حتى يولى مكانه (عبدالله بن مطيع) وهما ما هما من السياسة والارهاب لولا ان في سياسة (ابن مطيع) شيئاً من اللين ونشطت الحركة في عهد (ابن مطيع) وبلغ ذلك الوالي فارسل عليه ليدخله

في السجن ولكنه تمارض هذه المرة حينما قرأ عليه الرسول (زائدة بن قدامه) آية من القرآن « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) فافلت من الوالي ولم يسجن هذه المرة . .

وبالاضافة الى قوة هؤلاء الولاة ، وشدة حيطتهم فان هناك عنصراً قوياً يحارب حركة المختار هو الحزب الاموى . فان الكوفة في ذلك العهد كانت مجمع الأشتات ، ففيها الأموي المتعصب في امويته ، وفيها الخارجي وفيها الشيعي المتفاني في حبه لآل البيت وهم الاغلبية الساحقة من السواد ولكنهم عزل من المال والسلاح اما آل الزبير فهم السلطات الحاكمة ـ اثناء الحركة ـ من والي وأمير خراج واتباع هؤلاء من جنود ومرتزقة . فلم يظفر المختار من هذه العناصر المختلفة والمضادة له على طول الخط بغير عدد ضئيل من الشيعة كان اكثرهم من الكيسانية . فحاول أن يثب بهم في (المحرم) ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته دون أن يستوثقوا من تحصيل الرخصة من محمد بن الحنفية وانصرفوا اليه .

ولكن الحظ ساعده هذه المرة فلم يلبث النفر الماضي الى محمد أن عاد وهو يحمل في حقيبته الاذن والسماح من « ابن الحنفية » والرخصة في الأخذ بالثأر فقد قال لهم مشجعاً وباعثاً فيهم روح العزم والنشاط والثورة ﴿ فو الله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ﴾ ولكن ﴿ محمد بن الحنفية ﴾ لم يستقل باعطاء الرأي وحده دون أن أخذ رأي

ابن اخيه علي بن الحسين زين العابدين فقد قال له ﴿ يا عم لو أن عبداً زنجياً تعصب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت ﴾ .

فسمع الوفد هذه المقالة فخرج وهو يرددها وقد عزم من حينه على الالتحاق بالمختار والانضمام اليه ـ كما حدثنا بذلك ابن نما ـ والحق ان هذه الخطوة الجبارة اكسبته شهرة وذيوعا وبدأ الناس يصغون الى أحاديثه وينظرون اليه في اكبار معجبين مؤملين ولكنهم اشاروا عليه في تلك الحال أن يدعو ابراهيم بن مالك الاشتر النخعي الى البيعة ووافق المختار..

وذهب جماعة الى ابراهيم على سبيل التمهيد وشرحوا له المسألة كأوضح ما تكون فقبل الفكرة دون تردد ولكنه حاول أن يرشح نفسه رئيساً لا مرؤوساً فقيل له :

(إنما ندعوك لأمر قد اجمع عليه رأي الملأ من الشيعة الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله والطلب بدماء اهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء) بعد أن قال له أحدهم ﴿ أنت لذلك أهل ولكن ليس الى ذلك سبيل هذا المختار وقد جاءنا من قبل المهدي وهو الرسول والمأمور بالقتال قد امرنا بطاعته ﴾ فسكت ابراهيم ..

ومضت أيام ثلاثة ومشى المختار تحفه جماعة من شيعته بينهم ﴿ الشعبي وابوه شراحيل ﴾ و ﴿ هو من الثقاة عند العامة ﴾ مشوا الى ابراهيم :

وبعد أن استقر بهم المكان ورحب ابراهيم بالزعيم الجديد ترحيباً

حاراً افتتح المختار معه الكلام ﴿ إن الله أكرمك وأباك في موالاة بني هاشم ونصرتهم ومعرفة فضلهم وما اوجب الله من حقهم ﴿ ثم قال ﴾ وهذا كتاب محمد بن علي وهو خير أهل الأرض اليوم وابن خير أهل الارض كلها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله يأمرك أن تنصرنا وتؤازرنا فان فعلت اغتبطت وان امتنعت فهذا الكتاب حجة عليك وسيغني الله محمداً وأهل بيته عنك ﴾ .

يقول ﴿ الشعبي ﴾ وكان المختار قد دفع إلي كتابا مختوما حين خرجنا من المنزل فلما فرغ من كلامه هذا قال ادفع الكتاب الى ابراهيم فدفعته اليه ففضه وقرأه فاذا فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي الى ابراهم بن مالك الاشتر سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا آله الا هو .

(... اما بعد فاني قد بعثت اليكم وزيرى وأميني الذي ارتضيته لنفسي بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي ، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن اطاعك فانك ان نصرتني ، واجبت دعوتي كانت لك بذلك عندي فضيلة ، ولك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام ..

وتتمة الكتاب في بعض المراجع :

(علي الوفاء بذلك علي عهد الله فان فعلت نلت به عند الله أفضل

الكرامة وأن أبيت هلكت هبلاً كماً لاتستقيله ابدا) (١) وتلكأ إبراهيم بادىء الأمر ولكنه سرعان ماقبل الفكرة وبايع المختار حينما شهد له مشيخة المصر والثقاة فيهم .

ولا بد لنا من الوقوف عند هذا الكتاب الذي ذهب فيه المؤرخون مذاهب شتى فمن قائل بانه مزور ليس له من الصحة نصيب ومن قائل بان مشيخة المصر (الكوفة) شهدوا ـ خلا الشعبي وابوه شراحيل ـ أن هذا الكتاب هو من (محمد بن الحنفية) وفيه الرخصة والسماح بمناصرة المختار أما (الدينوري) وهو الثبت فلم يستثن واحداً من ثقاة المصر بل يطلقه بلفظ العموم فيروي مانصه .

(قال القوم نشهد ان هذا كتابه رأيناه حين كتبه) (٢)

ولكن الحق اننا اذا رجعنا الى تأريخ هذه القصة نجد أنها لم تأت عضواً وعلى سبيل الصدفة بل ان لها اساسا وطيدا هو عامر الشعبي مروج هذه الدعاية السيئة التي تشبث بها بعض المؤرخين واتهموا المختار بتزوير الكتاب .

والآن لنترك الحديث الى الشعبي ليقول :

قال الشعبي « ودخلتني وحشة من شهادة النفر الذين كانوا معي أنهم رأوا محمد بن الحنفية حين كتب الكتاب الى ابراهيم فاتيت الى منازلهم

(١) جمهرة رسائل العرب ج ٢ ص ١٢٦

(٢) الاخبار الطوال للدينورى ص ٢٥٤

رجلاً رجلا فقلت هل رأيت محمد بن الحنفية حين كتب ذلك الكتاب ؟!

فكل يقول نعم ، وما انكرت من ذلك فقلت في نفسي ان لم استعملها مع الأعجمي ـ ويعني به ابا عمرة صاحب المختار ـ لم اطمع فيها من غيره فأتيته في منزله وقلت ما اخوفني من عاقبة أمرنا هذا إن ينصب الناس جميعا لنا . فهل شهدت محمد بن الحنفية حين كتب الكتاب ؟ فقال ماشهدته حين كتبه . بيد ان ابا اسحاق عندنا ثقة ، وقد اتانا بعلامات من ابن الحنفية فصدقناه ـ ثم يقول الشعبي بعد هذه الجولة ـ فعرفت عند ذلك كذب المختار وتمويهه ، فخرجت من الكوفة حتى التحقت بالحجاز « ١ »

هذا كل ما كان يريد ان يقوله الشعبي في حق المختار وكل ما كان يدور في نفسه من إحباط هذه الثورة حتى التحق بالحجاز ليتقرب الى عاهلها عبد الله بن الزبير ولسنا الآن بصدد محاسبة الشعبي في عمله هذا ولكننا نريد أن نقول أن له يداً في اشاعة هذه الفرية التى طبل لها اكثر المؤرخين واتهموا المختار في تزوير هذه الرسالة على ان حقيقة أخرى يجب ان نشير اليها في هذا المقام وهو ما كان بين الشعبي والمختار من الأحن المتقادمة بينهما والعداء السافر بحيث يفسر لنا بجلاء قيامه بهذه الحملة ضد المختار .

ذكر ابن الأثير فى (أسد الغابة) انه كان بين المختار والشعبي مايوجب

---

(١) الاخبار الطوال ٢٥٥

ان لا يسمع كلام احدهما في الآخر غير أن هذه الكلمة غاضت ابن حجر فذكر انها غير صحيحة باعتبار أن الشعبي لم ينفرد بما حكاه عن المختار والشعبي مجمع على ثقته والمختار بالعكس واستشهد بهذه الدعوى من عدم انفراد الشعبي فيما يتقوله من اسناد دعوى النبوة للمختار وما يقال من حديث رفاعة .

وعلى هذا التقرير لا يسعنا المصادقة لما ذهب اليه بعض المؤرخين من تزوير الكتاب ، وكيف يصح لنا أن نتهمه بالكذب مادام لم يكن لدينا مدرك صحيح يصح ان نركن اليه او نأخذ به ، والتأريخ - كما رأيناه - مضطرب غير ثابت على قول ، ولماذا لا نحتمل انه جاء به المختار حين كان بالحجاز او أنه جاء به النفر الذي ذهب الى محمد ليتأكد من الرخصة والسماح ، ولكن المختار لم يجاهر بالحقيقة لظرف سياسية خاصة ولأن الفكرة بعد لم تنضج ، وحينما رأى بوادر النجاح جاهر بالحقيقة .

هذا هو رأيي في الكتاب ولكل باحث رأيه ..

❊ ❊ ❊

وهكذا استطاع المختار ان يضم الى حزبه الحسيني عضواً فعالا هو ﴿ ابراهيم بن مالك الأشتر ﴾ وابراهيم - كما هو معروف - له المكانة والمقام الممتاز في نفوس الشيعة لماله ولابيه من المواقف الدفاعية عن آل بيت الوحي كذلك كانت لديه قبيلة كبيرة ذات عدد وعــدة وهي تطيعه وتكاد تعبده حبا ، وكان الى جانب ذلك شجاعا مطرقا لا يهاب الالوف من الرجال وسنراه - نحن - سيظل مناضلا عن مبدئه بعقيدة وثبات

في جميع الثورات التي نشبت في الكوفة وخارجها فكان فيها القائد المحنك والفارس الغوار الذي لا يجارى ، حتى استطاع أن يوطد ملك صاحبه بمهارة ونشاط عظيمين .

* * *

ومما يجب ذكره والتنبيه اليه في هذا المقام ايضاحا واتماما لهذا البحث نقول :

لا شك بان المختار – كما رأيناه في الفصول السابقة – انه كان من محبي أهل البيت ومن المتعصبين لهم وهذا هو الدافع القوي الذي حمله على طلب الثأر إرضاء لحبه وعقيدته كما وقد وجد في المجتمع – وقد مرت الاشارة الى ذلك – قبولا للدعوة الى المطالبة بدم الحسين (ع) ووجد كذلك ان مقعد الزعامة لأخذ الثأر شاغر وان في نفسه الاستعداد الكافي والكفاءة للقيام بهذه المهمة ، كل اولئك خلقت من نفسه ذلك البطل ومن مجتمعه ذلك الميدان ، وبذلك نعرف ان حركته كانت من وحي حبه لآل البيت أضف الى ذلك ان آل البيت انفسهم قد أرخصوه في هذه الحركة ، أما ما حدثنا التاريخ من دعوته لمحمد فليس في ذلك من بأس ، حيث أن المختار كان يهدف بحركته الوصول الى المركز الذي يخوله أن يأخذ بثأر الحسين كما عاهد نفسه بدعوته الصريحة وفي خطبته – كما سنرى – عقب الثورة حينما بايعه أهل الكوفة ، وقد اجاز لنفسه أن يتخذ أي سبيل قصير يضمن به الوصول الى الغاية المتوخاة والغاية الشريفة تبرر الواسطه ،

فلذا وجد أن الدعوة لمحمد وهو كبير اهل البيت سناً والشخصية المرموقة في المجتمع في ذلك العهد هي اقرب الطرق التي توصله الى مبتغاه على ان هذا لم يثبت في التاريخ بشكل واضح ـ ونعني به الدعوة لمحمد ـ فهناك بعض الاشارات الى انه دعا للامام ـ علي بن الحسين ـ ولكننا نعتقد ان دعوته كانت ضمنية غير مباشرة ، لأن الامام ـ في أغلب الظن ـ كانت تكتنفه ظروف سياسية قاسية ولأنه احوج ما يكون للمحافظة على حياته ، ودعوته في الحقيقة ـ وهي الأخذ بالثأر ـ معناها الوقوف الى جانب الامام زين العابدين وان نصرة الحسين هي نصرة لزين العابدين ، ومن هنا يتضح لنا ايضاً انه لم يهدف بهذه النهضة بغير الطلب بالثأر فلا الرئاسة ولا السلطنة كانتا مما يفكر فيهما المختار ، لأن الذي يصل ما وصل اليه من الرئاسة يجب أن يقف من اول يوم ويغير اتجاهه وخطته بينما نراه على العكس من ذلك فقد ظل محافظاً على طابعه وخطته التي رسمها لنفسه واخذ يتتبع قتلة الحسين بكل اصرار ، ومن المؤكد المجزوم فيه أن الذي يدخل هذا الميدان الخطر المحفوف بالاهوال والمخاطر والذي أدت نتائجه الحتمية الى القتل والانهيار لا يمكن أن يتطرق اليه الشك فيتهم بحب الرئاسة أو السلطنة او الملك اوامثال هذه الاقاويل الفارغة ، بينما لو هادن قتلة الحسين واستهواهم بعد نيله لهـذا المنصب لأحتفظ به أمداً طويلا متمتعا بالهدوء والاستقرار فعلى هذا فضل الثبات على عقيدته الاولى التي نذر نفسه لها وان كان تنفيذها يؤدي به الى القتل .

وبهذه اللمحة استطعنا ان نتفهم الغاية التي نهض من اجلها المختار .

اندلاع الثورة

وكان عبدالله بن مطيع - كما رأيت - واليًا على الكوفة فلم يكن يعزب عن باله نشاط حركة الشيعة وتهيؤهم للوثوب فراح يعد لهذه الثورة العدة الكافية من آلة حرب وسلاح وجنود مدربين لأنه كان - ولا ريب - قد بلغه من طغمة بني امية وانصار ابن الزبير ما كان عليه امر الشيعة من القوة والحماس وترددهم في كل ليلة الى بيت عميدهم المختار وهم يراجعون المشورة في الوثوب لاسيما وفيهم ابراهيم ذو القوة والأيد وذو الصولة والبطش .

وعليه فقد عمد (عبدالله) الى جمع قواده في (قصر الامارة) وانفذ لكل منهم جيشًا حتى رابطوا في سكك الكوفة (وجبابنها) وهي مقابر قريش ليكون هؤلاء مسئولين بعد في قمع هذه الحركة التي بدأت تشب عن الطوق وتتمخض عن زعيمها .. المختار بن ابي عبيد .

كان ذلك عام ٦٦ هـ من ربيع الأول في خلافة عبدالملك بن مروان وراح عبدالله يوجه قواده على الصورة التالية :

١ — سعيد بن قيس الهمداني	الى جبانة السبيع من همدان
٢ — كعب بن كعب الخثعمي	الى جبانة بشير
٣ — زجر بن قيس	الى جبانه كنده
٤ — شمر بن ذي الجوشن الضبابي	الى جبانة سالم
٥ — عبدالرحمن بن منقذ	الى جبانة الصيدائيين .
٦ — يزيد بن الحرث بن رويم	الى جبانة مراد

٧ — شبث بن ربعي　　　　الى السبخة (١)

وكان عدد هذا الجيش قرابة عشرين الفاً في مقابل أربعة آلاف وهي مجموع عدد جيش المختار : فهل ترى هؤلاء الامراء يقضون على حركة المختار ؟ كلا .. ولكنهم سيذهبون مخذولين امام تلك الزمرة التي وطنت نفسها على الموت فقد وقفت ذلك اليوم موقفاً حسناً حتى ربحت المعركة .

وجاء ابراهيم على عادته في كل مساء . وبدا واضحا لديه ان (عبدالله ابن مطيع) قد حشد افواه السكك بالجيوش وملأ الجبانين بالعدة والعدد واخذ الحيطة لنفسه ومصره من هذا الخطر . ولكن ابراهيم لم يحفل لهذا التأهب او يثني من عزيمته بل أقبل تلك الليلة ومعه حشد من عشيرته يريد صاحبه في شجاعة واستبسال . ومر بالسوق عامداً حيث قد بلغه هذا الحدث من ابن مطيع فكأنه أراد ان يرعب قلوب الاعداء ويريهم ـ بالوقت نفسه ـ هوانهم وضعفهم بازاء قوته وبطولته .

وكان (عبدالله) قد وضع اميراً على شرطته يقال له (اياس بن مضارب) وهو الذي وشى عند ابن مطيع واطلعه على هذه الحركة فامره (عبدالله) أن يرابط في السوق لا يني لحظة واحدة فلما جاز ابراهيم بفتيته المناجيد وكانوا كلهم قد لبسوا السلاح واستلئموا للقتال .هم إذ ذاك «اياس» ان يعترضهم ويقف في طريقهم وبالتالي يمسكهم ليقدمهم أسرى الى الامير صاغرين ، فوثب اليه ابراهيم وطعنه في رمح رجل همداني في ثغرة نحره

(١) مقتل الخوارزمى ج ٢ ص ٢٩٠ .

وقع منها « اياس » يتخبط في دمه ثم رقد .

وما كاد هذا النبأ يصل الى « ابن مطيع » حتى أصدر أمره بتعيين إبنه راشداً ومكان راشد الذي كان في « الكناسة » سويداً المنقرى .

ووصل إبراهيم الى صاحبه ونشوة الظفر لا تفارق شفتيه فقد حمل معه رأس اياس وقص قصته لصاحبه وعما وقع له في الطريق فكاد المختار يطير فرحا وتفاءل بالنجاح ثم دعا سعيد بن منقذ الهمداني حتى يشعل النار في القصب وينادي مناديه في الكوفة .

يالثارات الحسين ـ يامنصور أمت ـ يا أيها الحي المهتدون ان آمين آل محمد ووزيرهم قد خرج فنزل « دير هند » وبعثني اليكم فاخرجوا اليه .

وقد صكت أسماع القوم نداءات المختار فهبو خفافاً من دورهم مرددين

يالثارات الحسين يالثارات الحسين

ويجيء دور المختار فقد عمد الى سلاحه فتقلده حتى يبرهن في هذا اليوم على قوته وليحقق ذلك الحلم الذي طالما راوده في جميع مراحل حياته وخرج وهو يردد أبيات مروان .

قد علمت بيضاء حسناء طلل واضحة الخدين عجزاء كفل

اني غداة الروع مقدام بطل لا عجز فيها ولا وغد فشل

وتهيأ للنظال : ولندعه الآن يجمع اليه اشتات الشيعة المتفرقين هنا وهناك ونرى ماذا صنع قائده إبراهيم ؟

اما إبراهيم فقد عمد لاستنفار عشيرته وحضهم على الحرب . ومالبث

ان عاد وهو على رأس جيش كبير يجوز بهم سكك الكوفة متنكبا المواطن التي حشدت بالجيوش .

ومنذ تلك اللحظة تنبعث الشرارة الاولى

وأول من قابله مدد من جند زجر بن قيس كان قد أرسلهم هو ليقيس بهم مدى قوة خصمه غير ان إبراهيم فاجأهم بحملة منكرة ففرقهم في البيداء ولاذوا بقاعدتهم جبانة كنده وانتهى ابراهيم إلى هذا المكان فسأل من صاحب الخيل في هذه الجبانة ? فقيل له زجر بن قيس :

فكر عليهم ثانيا وهو يقول

« اللهم إنك تعلم انا غضبنا لاهل بيت نبيك وثرنا لهم فانصرنا على هؤلاء وتمم لنا دعوتنا » حتى كشفهم وفرق صفوفهم في البيداء وصادفه في خلال ذلك « سعيد بن عبد الرحمن » في مدد طويل إستطاع إبراهيم ان يهزمه وجنده حتى أدخله « الكناسة » وقرر اخيراً أن يذهب الى صاحبه فقد خلفه منذ أمد في حرب مستعرة حتى يزداد به قوة على قوة وصلابة على صلابة .

ولما قدم ابراهيم سمع جلبة عظيمة ودويا خارقا هو مايحدثه صهيل الخيل وقعقعة اللجم لأن المختار قد اشتبك مع قائدين عسكريين هما شبث بن ربعي الآنف الذكر وحجار بن ابجر وقد صمد لهم المختار كالطود لا يتزعزع من مكانه شبرا واحدا ولا يتخاذل ولا يلين وجعل قبالتهم من رجاله الابطال رجلين وهما يزيد بن انس وأحمر بن شميط وهذا الاخير قتل مع المختار في يومه الاخير فيمن قتل من اصحابه .

وهنا يبدو الانكسار في جيش العدو فهذا « حجار بن ابجر » ينسحب بجيشه عن خطة الميدان وهذا الآخر شبث بن ربعي يتراجع الى الوراء ليفسح لقواد المختار الطريق وليذهب من فوره الى الامير ليـدبر خططاً اخرى وينقذ الموقف . وفي تلك الاثناء أقبل رجلان لمساعدة المختار ومع كل واحد فريق من الرجال وهما .

١ — قيس بن طهفة النهدي ٢ — عبدالله بن الحر الجعفي

وخرج بعدهم ﴿ بنو شاكر ﴾ من دورهم مستبسلين تضامنا مع شيعة المختار وكان داعيتهم ابو عـثمان النهدي وتلا هؤلاء بعـــد ذلك عبد الله بن قتادة في جماعة زهاء ماءتين رجلا .

وهكذا اندلعت السنة الثورة واخـــذت تضم القبائل الواحدة تلو الاخرى حتى بلغوا قرابة خمسة الآف رجل . وخرجت قبيلة ﴿ شبام ﴾ وهم بطن من همدان وهي آخر من خرج من القبائل :

وبدا واضحا لدى عبد الله مطيـع ان الموقف دقيق ويجب إنقاذه فماذا سيحتاط لهذا الخطر الداهم ؟ فقد حدثنا ﴿ الطبري ﴾ ان ابن مطيع جمع اليه قواده في تلك الساعة الحرجة واصدر أمراً لمدير شرطته ان ينادي في الـكوفة .

ألا برئت الذمة من رجل لم يات المسجد في هذه الليلة :

حتى يستعمل آخر ماعنده من السلاح لان الخطر اضحى يتمثل امام عينيـــه .

ووجه حملاته على الصورة التالية

اولا . . حملة بقيادة شبث بن ربعي في ثلاثة آلاف رجل

ثانياً . . حملة اخرى بقيادة راشد بن اياس وتكون هذه الحملة لصد هجمات جيش المختار وقال ﴿ ابن نما ﴾ عليه الرحمة وزاد

ثالثاً . . حملة اخرى بقيادة حجار بن ابجر في ثلاثة آلاف رجل فيكون مجموع الجيش الذي تأهب للحرب مرة اخرى قرابة عشرين الفاً وكله شاكي السلاح بمعنى أربعة أضعاف جنود المختار . .

كذلك المختار وجه حملاته على الصورة التالية :

١ — انفذ ابراهيم في تسع مائة من الفرسان ومثلها في ست مائة من الرجاله لقتال راشد بن أياس .

٢ — نعيم بن هبيرة ـ اخا مصقلة بن هبيرة ـ الى قتال شبث بن ربعي في ثلاث مائة فارس وست مائة راجل .

٣ — يزيد بن انس في تسع مائة من الفرسان وخلفهم القوة الرئيسية مع القائد الجريء وهو المختار : وتشتبك المعركة من جـــديد :

ووجـه نعـيم جيشه نحو شبث وهجم بصورة مفاجئة واوشك أن ينتصر ولـكن كثرة جيوش غريمه مما أدى الى تضعضع موقفه وخذلانه امام خصمه وعاد خصمه بعد هـــذا الهجوم المضاد الى تطويق (المختار) و يزيد بن انس وفطن يزيد بهذا التطويق حيث فعل شبث بما يسمونه في الحروب الحديثة بـ (حركة التفاف) استطاع ان ينقذ الموقف بعد ان

رد جنود شبث على اعقابهم مندحرين وبعد أن ألهب عزائم رجاله بقوله :

(يا معشر الشيعة انكم كنتم تقطع ايديكم وارجلكم من خلاف وتسمل اعينكم في حب اهل بيت نبيكم - صلى الله عليه وآله - فما ظنكم بهؤلاء ان ظهروا عليكم ؟ فلا يدعون والله لكم عيناً تطرف ولترون منهم في اولادكم وازواجكم ما الموت خير منه والله لا ينجيكم منهم الا الصدق والصبر والطعن) .

ولنعد الآن الى (ابراهيم) فقد تركناه مع ﴿ راشد بن اياس ﴾ الذي كان معه من الجند ما يقارب الأربعة آلاف ولكن هل تعلم كيف استطاع ابراهيم أن ينتصر بهذه المعركة ويربح الموقف ؟!

انه قبل كل شيء أخذ يشجع أصحابه على الصمود لهجمات العـــدو ويبث فيهم الثقة والأمل بشجاعته ورباطة جأشه وهو يقول :

(لا يهولنكم كثرة هؤلاء .. فرب فئـــة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) .

واستعرت المعركة ودارت رحى الحرب في حين أن جبهة العدو لم تتقدم خطوة واحدة ولكنها ظلت متشبثة بمراكزها الاصلية ولم يمض وقت طويل حتى مشت الهزيمة في ركاب أنصار (ابن مطيع) .

فقتل (راشد بن أياس) وولى اصحابه منهزمين .

وتلاحقت سلسلة من الانتصارات فاز بها كلها ابراهيم .

١ — انتصر على (حسان العبسي) وكان جيشه قرابة الفين .

٢ — وانتصر على (يزيد بن الحارث) وقد عهد اليه في حراسة أفواه السكك .

٣ — انتصر ايضاً على (شبث بن ربعي) وقد عين هذا خاصاً لصد هجمات جيش الأمير وجاء ـ بعد هذه الانتصارات السابقة ـ هذا الشجاع يسحق كل عقبة كأداء تعترض طريقه وبدأ :

٤ — بابراهيم بن الحجاج فاباده وجنده ، ومضى وطائر الظفر يرفرف فوق رأسه فاعترضه اثناء الطريق :

٥ — شمر بن ذي الجوشن ففرق جنوده حتى اضطر الى الفرار بمعاونة سعيد بن منقذ الهمداني :

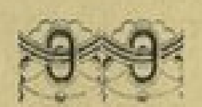
اما المختار فقد كانت شجاعته ومواقفه مضرب المثل ، فلم ينته من معركة حامية حتى يقذف نفسه في لهوات أخرى ويخرج منها مرفوع الجبين ، وكان قبيل هذه الانتصارات يحاول أن يدخل الكوفة ولكنه جوبه من قبل الرماة الذين كانوا على افواه السكك فعدل عن هذه الخطة الى خطة تضمن نجاحه وهي أن يدخل من بيوت مزينة وكانت بيوتهم متفرقة ، وحين وصلهم المختار خفوا اليه يقدمون له الماء فشرب جيشه اما هو فلم يشرب لأنه كان صائماً ذلك النهار ـ وكانت عادته كلما نوى على الحرب أمسك عن الطعام والماء استمداداً للقوة الروحية ـ وعلى كل حال فقد بدأت تباشير النجاح تبدو واضحة في كل خطوة يخطوها هذا القائد الجريء ولم يبق لديه سوى أن يدخل الكوفة .

ودخل الكوفة وبمعيته ابراهيم وقد راح هـذا الاخير يحرض اصحابه بهذه الحملة الفاصلة وقد أمرهم بالنزول عن خيولهم .

(قربوا خيولكم بعضها من بعض ثم امشوا اليهم مصلتين بالسيوف ولا يهولنكم أن يقال جاء آل فلان وآل فلان ..

واسفرت هذه الحملة الاخيرة ـ وقد دخلت الجيوش المحتلة اسواق الكوفة وشوارعها ـ ان حوصر قصر الامارة ، ومعناه النصر النهائي للامير الجديد والانيدحار النهائي لعدوه .

وبعد فترة قصيرة كانت الكوفة تحت طاعة المختار وسلطته .



بعد الفتح

استولى المختار على الكوفة واحتل قصر الامارة وقد وجد فيه من مخلفات الوالي شيئاً من النقود فرغب أن يسدي اليه يداً فبعث اليه بكمية كبيرة من المال وقال: خذ هذا فقد بلغني انه لم يمنعك من الخروج سوى قلة ذات يدك ، وكان ابن مطيع قد اختبأ في منزل ابي موسى الاشعري وابو موسى غير خاف عداؤه الصريح لآل البيت فلا غرابة إذا رأينا الوالي يلوذ في هذا البيت ، ومهما يكن الأمر فقد استولى المختار على الكوفة واصبح في اليوم التالي يعلن سياسته ويخطب في المسجد فيقول:

(الحمد لله الذي وعد وليه النصر وعدوه الخسر وجعلها فيه الى آخر الدهر قضاء مقضيا ووعدا مأتيا ، قد سمعنا دعوة الداعي ، وقبلنا قول الواعي فكم من باغ وباغية قتل في الواعية ألا بعداً لمن طغى وجحد وبغى وادبر وعصى وكذب وتولى .. ألا فهلموا ـ عباد الله ـ الى بيعة الهدى ومجاهدة الأعدا والذب عن السعدا من آل محمد المصطفى ...

ثم أضاف يقول :

(فلا والذي جعل السماء سقفاً مكفوفا والارض فجاجاً وسبلا ، ما بايعتم بعد علي بن ابي طالب أهدى منها) .

وهذه الخطبة القصيرة تعرب لنا عن هدفه الذي ضحى من أجله كل غال ورخيص وهو (مجاهدة الاعدا والذب عن السعدا من آل محمد المصطفى) كما تعرب عن مدى ثباته وعقيدته وتفسر لنا سياسته التي يسير عليها

- اثناء الحكم - فهي بمجموعها صورة انعكست عليها نفسيته فيما ينويه من هذه الوثبة .

وبعد ذلك صلى بالناس في المسجد ثم اقبل الى القصر فانثالت عليه جموع من الناس يبايعونه على (كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء اهل البيت وجهاد المحلين والذب عن الضعفاء) حتى بايعه - كما يروى - العرب والعجم على السواء .

والظاهر من التاريخ ان الشعب الكوفي وقف من هذه البيعة موقفاً ايجابياً فلم يبد أية معارضة بالرغم من كثرة عناصره واحزابه المختلفة واذعن لهذه البيعة - سواء في ذلك العجم والعرب - بكل اكبار واجلال واغلب الظن ان الحزب الاموي لم يرتض هذه البيعة في قرارة نفسه ولكنه اندفع - على كل حال - بدافع الخوف والرجاء الخوف من الانتقام والفتك به من الزعيم الجديد والرجاء عما في يده من مال او عطاء ، ومن المؤكد ان هذا الحزب ظل يتحين الفرص الى الثورة ضد هذه السلطة كلما وجد الى ذلك سبيلا حتى استطاع أخيراً ان يقضي على هذه الحركة القضاء الاخير - كما سنرى - اما هؤلاء الذين بايعوه ونرجح ان يكونوا الاغلبية الساحقة فقد اندفعوا بدافع ولائهم لآل البيت آملين أن يظفروا بغايتهم القصوى وهي الطلب بدم الحسين والقضاء على السلطة الاموية الجائرة او انهم اندفعوا لتخفيف الآثام التي اقترفوها في تقاعسهم عن نصرة حفيد

نبيهم ومناصرته وعلى اية حال فقد بايعوا المختار مخلصين مؤملين في هذه البيعة النصرة لآل البيت .

وحين تمت له البيعـــة كما توخى من جميع القبائل حتى المجاورة الى الـكوفة قام بتنظيماته الأدارية وباشر باعماله الخارجية ، ففرق عماله على الثغور والامصار كل حسب كفاءته ، فكانوا على البيان التالي :

١ — ارمينية بعث اليها عبد الله بن الحارث اخا الاشتر وعقـــد له راية .

٢ — اذربايجان : بعث اليها رجلا يقال له محمد بن عمير بن عطارد

٣ — الموصل : بعث اليها عبدالرحمن بن سعيد بن قيس

٤ — المدائن : بعث اليها سعيد بن حذيفة بن اليمان

٥ — الري : بعث اليها يزيد بن نجبة الفزاري

٦ — أصفهان واعمالها : ارسل اليها يزيد بن معاوية البجلي

٧ — ببقباذ الأعلى بعث اليه قدامة بن ابي عيسى بن ربيعة النصري وهو حليف ثقيف .

٨ — ببقباذ الاوسط : بعث اليه محمد بن كعب بن قرظة .

٩ — ببقباذ الاسفل : بعث اليه حبيب بن منقذ الثوري :

وخضعت له جميع الحاضرة الاسلامية سوى الحجاز والشام ومصر

والبصرة والجزيرة وهذا الاقليم الاخير صار تحت قبضته فيما بعد حينما استولى عليه ابراهيم بقتاله مع عبيدالله بن زياد وانتصاره عليه ، ولما فرغ من توزيع عماله اخذ ينظم اعماله الداخلية فوضع على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري وعلى حرسه كيسان ـ ابا عمرة ـ مولى عرينة واقر شريح القاضي على وضيفته في القضاء ، ولكنه مالبث ان عزله واحل محله عبد الله ابن مسعود وذلك حينما علم بانه عثماني العقيدة وهو الذي شهد على حجر ابن عدي الكندي بالقتل .



سياسة العامة

كانت السياسة التي جرى عليها المختار ـ اثناء حكمه في الكوفة ـ تعتمد غالباً على الشدة والقسوة ولكنها القسوة في حدود معينة ، اذ لم يكن يميل بطبعه الى هذا اللون من السياسة ولكن مركزه كثائر يحاول تطهير الكوفة من قتلة الحسين يحتم عليه قسراً ان يعتنق في سياسته هذه الشدة ، وهذا هو احد الاسباب الذي اثار حوله التهم والشكوك واستراب فيه الناس ، كما ان هناك بادرة اخرى في سياسته وهي عدم التحيز الى عنصره وقومه بل كانت نظرته تشمل جميع طبقات الناس حتى يقال انه هو (أول من حاول مساواة الموالي بالعرب في الاعطيات الامر الذي أدى الى تذمر العرب فشكوا أمرهم اليه ومما قالوه عمدت الى موالينا وهم فيء افاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً لنا فاعتقنا رقابهم نأمل الاجر في ذلك والثواب والشكر فلم ترض بذلك حتى جعلتهم شركائنا في فيئنا) (١)

وسار هو على هذه الخطة غير مصغ الى مقالة هؤلاء فساوى في الاعطيات وفي توزيع بيت المال فاثارت هذه السياسة حوله مشكلة ادت بالنتيجة الى نشوب حرب اهلية .

وكان من سياسته وحسن تصرفه في الامور انه دارى عبدالله بن الزبير حتى اعتقد (عبدالله) انه انما قام على حسابه خاصة وليس له في ثورته ناقة ولا جمل فكتب اليه :

(.. اما بعد فقد عرفت مناصحتي اياك وجهدي على اهل عداوتك

---

(١) تاريخ البرامكة ص ١٦ .

وما كنت اعطيتني إذا انا فعلت ذاك من نفسك فلما وفيت لك وقضيت الذي علي ـ خست بي ـ اي تأخرت ولم تف بما عاهدتني عليه ورأيت مني ما قد رأيت فان ترد مراجعتي اراجعك وان ترد مناصحتي اناصحك ..)

ووثق (ابن الزبير) بهذا الكتاب ولكنه ظل يراقب خطواته عن كثب واخيراً اراد أن يختبر صدقه فارسل من قريش والياً على الكوفة في مكانه ولكن المختار احس بذلك فارسل اليه من يرده على عقبيه وقال :

(اخرجوا الى هذا المغرور فردوه .. فخرجوا اليه وقالوا اين تريد ؟ ! والله لئن دخلت الكوفة ليقتلنك المختار . وكتب المختار بعد ذلك الى ابن الزبير ان صاحبك جاءنا فلما قاربنا رجع فما ادري من الذي رده ؟! فغضب ابن الزبير على القرشي ورده ثانية فقال المختار ايضاً (اخرجوا الى هذا المغرور فردوه) وهكذا الى مدى ثلاث مرات حتى فطن ابن الزبير ان المختار يكايده ويداريه ، وحينما علم ابو اسحاق انه قد فطن (١) ابن الزبير

---

(١) وروى (الطبرى) فى هذا المقام قال .

واراد ابن الزبير أن يعلم أسلم هو ام حرب ؟ فدعا (عمر بن عبدالرحمن ابن هشام المخزومى) فقال له تجهز الى الكوفة فقد وليناكها ، فقال كيف وبها المختار ؟ قال : إنه يزعم انه سامع مطيع ، فتجهز بما بين الثلاثين الف درهم الى الاربعين الفاً ثم خرج مقبلا الى الكوفة ، وجاء عين المختار من مكة فاخبره الخبر فقال له : بكم تجهز ؟ قال بما بين الثلاثين الفاً الى الاربعين الفاً فدعا المختار (زائدة بن قدامة) وقال احمل معك سبعين الف درهم ضعف ما انفق هذا فى مسيره وتلقه فى المفاوز واخرج معك مسافر بن سعيد الناعطى ـ

لما أراد وانه بات عدوه اللدود لم يعد بحاجة الى مداراته كتب اليه كتابا شديد اللهجة وقع في نفس عدوه وقوع الصاعقة (١)

(من المختار بن ابي عبيد الثقفي خليفة الوصي محمد بن على امير المؤمنين الى عبدالله بن اسماء ثم ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه) (٢)

وكان من سياسته ايضاً انه لم يقطع صلته مع (محمد بن الحنفية) صفيه القديم واستاذه الذي تلمذ على يده بل كان دائم الاوقات يحمل اليه الهدايا ويصله برسائل وكتب كما وصل بذلك الامام السجاد (زين العابدين).

ومن ذلك ما كتبه اليه يستحثه على الثورة وعلى استيلاء المدينة ..

(فان رأيت أن أبعث الى أهل المدينة من قبلي جيشاً كثيفاً وتبعث اليهم من قبلك رسلا حتى يعلم أهل المدينة اني في طاعتك وإنما بعثت الجند

- فى خمس مائة فارس دارع رامح عليهم البيض ثم قل له خذ هذه النفقة فانها ضعف نفقتك فانه قد بلغنا انك تجهزت وتكلفت قدر ذلك فكرهنا ان تغرم فخذها وانصرف فان فعل فارة الخيل وقل له: ان وراء هؤلاء مثلهم مائة كتيبة فاخذ زائدة المال واخرج معه الخيل وتلقاه بالمفاوز وعرض عليه المال وامره بالانصراف فقال له ان امير المؤمنين قد ولانى الكوفة ولابد من انفاذ امره. فدعا زائدة الخيل وقد اكمنها فى جانب فلما رآها قد اقبلت قال. هذا الآن اعذرلى واجمل بى هات المال: فقال له زائدة. اما انه لم يبعث به اليك الا لما بلغك ويبلغه فدفعه اليه فاخذه ثم مضى راجعاً نحو البصرة.

الطبرى ج ٧ : ١٣٣

(١) جمهرة رسائل العرب ج ٢ ص ١٣٤

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٦٧

اليهم عن امرك فافعل فانك ستجد عظمهم بحقكم أعرف وبكم ـ اهل البيت ـ ارأف منهم بآل الزبير الظلمة الملحدين والسلام عليك (١)

ولكن ابن الحنفية أبى ان يستجيب لهذه الدعوة ورد عليه :

(... اما بعد فان كتابك لما بلغني قرأته وفهمت تعظيمك لحقي وماتنوي به من سروري وان احب الامور كلها ما اطيع الله فيه فاطع الله ما استطعت فيما اعلنت واسررت واعلم اني لو اردت القتال لوجدت الناس إلي سراعاً والاعوان لي كثيراً ولكني اعتزلهم وأصبر ، حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ...)

وكان يسير على هذه السياسة التي كان ملاكها توطيد ملكه وتحقيق هدفه الذي ثار من أجله ـ وهو الطلب بدم الحسين ـ وبهذا كسب ثقة محمد بن الحنفية فيه وكان لا يفتأ يذكر آل البيت مما يدل دلالة واضحة انه كان يؤمن بهم إيماناً راسخاً وليس ادل على ذلك من انقاذه ابن الحنفيـة من (سجن عارم) حينما سجنه عبدالله بن الزبير لارغامه على البيعة ، فقـد استطاع المختار أن ينقذه ، وسبعة عشر نفراً من شيعته في بعثة عسكرية انفذها لهذا الغرض ، واستطاعت هذه البعثة ان تخلصه من براثن الموت ، وهذا العمل اقل ما يستشف منه ، ولاؤه الشديد لآل البيت وحنكته ودهاؤه السياسي .

اما اذا القينا نظرة على مركزه الداخلي ومكانته بين اهل الكوفة

(١) الطبري ٧ - ص ١٣٥ .

وذلك بعد السلطة والاستيلاء . نجده قد هيمن على الناس هيمنة كبيرة ومرد هذه الهيمنة ـ في الحقيقة ـ يرجع الى قوة شخصيته ودهاءه السياسي ونبل غايته ولقد اتسعت هيمنته وتضخمت حتى أصبح يتمتع بشخصية قدسية مهابة ، فلا نغالي إذا قلنا من ان الناس ـ وخصوصاً السواد منهم ـ اخذوا ينظرونه بعين الاكبار والتقدير نظرتهم الى انسان مثالي مقدس ، حيث أن من الصدف الحسنة التي إستغلها المختار انه كان يمتلك غلاما يدعى جبرئيل ـ كما يحدثنا المرزباني في كتاب الشعراء ـ فكان يقول عنه جاءني جبرئيل واخبرني جبرئيل وما الى ذلك من العبارات حتى توهم السواد من الناس انه المقصود به (الامين) وان المختار نبي مرسل .

ومن هنا تقول عليه التاريخ بدعوى النبوة ونزول الوحي عليه ونحن لا ننكر هذه الدعوى ولا نثبتها ولكننا لا نجد فيها ـ لو صحت ـ بأساً أو غضاضة لأنه ـ بلاشك ـ قد استخدم ـ هذه الفكرة ـ لأجل تركيز نهضته كما استخدمت الحكومات القديمة او السلاطين على الاصح ـ نظرية التفويض الالهي ـ في حكم شعوبهم وارغامهم على الطاعة والخضوع حتى أنهم كانوا يعبدون على انهم آلهة أو انهم ظل الآلهة في الارض وانهم هم الواسطة بين البشر وبين الله وبمرور السنين وتقدم البشرية أصبح البشر يزهد ويسخر من هذه النظرية حتى تلاشت تقريباً في الوقت الحاضر وكان الغرض من ذلك أن يحكموا امداً طويلا من دون معارضة ويأمنوا من كل ثورة تقام ضدهم ، وتمشياً على هذه القاعدة ـ ادعى المختار النبوة على قول بعض

المؤرخين - حتى يضفي على نفسه صفة القدسية بحيث لا يستطيع أحد من المعارضين أن يثير السواد والغوغاء ضده ، ونحن واثقون من انه لم يرد في ذلك أن يوهم على ابن الزبير وامثاله من المحنكين من انه نبي ولم يوهم كذلك على نفسه بهذه الدعوى وإنما هي مجرد فذلكة سياسية كان الغرض منها السياسة فقط - والسياسة مكر وخداع - ويمكننا أن نعيب عليه لو أتانا بدين جديد او ابتدع مذهباً آخر في العقيدة في حين أن هذا لم يذكره التاريخ مطلقاً مع العلم بان التاريخ لا يشك في كونه مسلماً من اتباع النبي (ص) وآل البيت .

ولا حاجه بنا بعد هذا البيان ان نجد بأساً في إلصاق دعوى النبوة به وسواء ادعاها هو لنفسه او ادعاها له (ابو عمرة) صاحبه - كما يقول النوبختي في فرق الشيعة - من ان أبا عمرة هو الذي ادعى ان جبرئيل كان يأتي المختار بالوحي من عند الله فيخبره ولا يراه .

وموجز القول فان دعوى النبوة - ان صحت - قد استخدمها سياسياً لا دينياً ولتركيز نفسه ليضمن بها البقاء طويلا حتى يتم له ما يريد من الأخذ بالثار .



فشل المعارضين

وعلى رغم ما بذله المختار من سياسة وحنكة ودهاء فقد كان الحزب الأموي يعارض سياسته بكل قواه ويتحين الفرص اطوح سلطانه واخذ يشيع الاراجيف حوله ويتهمه في نهضته من انها لم تحمل رأي - محمد بن الحنفية - ولا رضا أهل البيت وانما كان المختار يجر الناس الى قرصه بدافع حب السلطة والاستيلاء وسببت هذه الدعاية نشوب حرب داخلية، وسبب آخر ساعد الثوار على ثورتهم هو - ما تقدمت الاشارة اليه - من مساواة المختار للعرب والموالي، وقد رأى العرب هذا العمل تحديا لكرامتهم وامتهانا لحقوقهم فلذا وقعت الثورة الداخلية، ونحن نورد بهذا المقام كيف تمكن الثائرون على اعلان الثورة وكيف بائت بالفشل اخيراً ؟!

كان ابن زياد - الذي سبق القول عنه - قد عهد اليه قتال اهل الجزيرة ومن ثم يعود لاخضاع العراق أما في الجزيرة فقد نجح نجاحاً ملحوظاً وخاصة في حربه مع التوابين غير انه لم ينجح في إخضاع زفر الكلابي داعية ابن الزبير في حين ظل يماطله ما يقرب من عام واحد غير أنه آب منه ومن قبيلته قيس غيلان - وهي بطن من ثقيف - بالخيبة والفشل ثم عاد بعد هذا الفشل فنزل الموصل .

ومنذ تلك اللحظة التي علم بها ابو اسحاق بقدوم عبيدالله عدوه الالد قرر ان يبدأه بالقتال، فانفذ يزيد بن انس في ثلاثة آلاف فارس لمحاربته ثم اوصاه بعدة وصايا - كعادته - وودعه وأنصرف يزيد، ويسير هذا القائد ويسير حتى انتهى الى الموصل، كيما يظفر بخصمه، غير أن ابن زياد

وقد بلغه قدوم يزيد لمحاربته . رأى انه وجد ضالته واتاه القوس من غير ثمن وسيجتاحه وجنده في بضعة حملات يشنها عليه كيما يظفر بالعراق الذي مناه به عبدالملك وابوه مروان من قبل ، فقال سأبعث اليه بدل كل الف الفين . وفعلا انفذ اليه ستة آلاف مقاتل ثلاثة آلاف بقيادة ربيعة الغنوي وثلاثة اخرى بقيادة عبدالله الخثعمي ، ولكن ربيعة كان قد سبق صاحبه والتقى بيزيد . وهنا وقع لسوء الحظ ان يزيداً قائد الجيش قد مرض مرضاً شديداً غير انه راح يحث اصحابه على الصبر والثبات في مواجهة الاعداء .

وفي عام ٦٦ هـ شبت نيران المعركة وانتهت بانتصار يزيد وقتل ربيعة وهلاك عبدالله ولكنه كان نصراً مؤقتاً لأن المعركة لم تنته الى نتيجة حاسمة حيث توفي يزيد ودفن في مقره الاخير بعد أن عهد بالقيادة الى ورقاء بن عازب الاسدي فآثر ورقاء خليفة يزيد أن ينسحب عن هذه الخطة التي لا يأمن نجاحها الى خطة اضمن الى النجاح وعليه يرجع الآن باصحابه من غير ما هزيمة لا سيما وان الامدادات الكثيرة العدد والعدة والتي توجهت من القيادة العليا لا يقوى على الوقوف في وجهها . وفعلا قفل راجعاً بجنوده الى الكوفة .

وكان المختار يترقب اخبار قائده يزيد اذ فوجىء بنبأ مريع وهو قتل قائده يزيد وتفرق جنوده وخسارته بهذه المعركة ولم يصدق الناس انه مات حتف انفه ولكن المختار عمد فوراً فاتصل بعامله على المدائن ليكشف له

جلية الحال وكان من عامله ان اجابه بموت قائده وان جيشه في الطريق لم يتكبد اضراراً جسيمة . فقرر المختار عند ذلك ان يبعث قائده الـكفء ابراهيم بن الاشتر وليقوم هذا في قيادة الجيش بدلا من ورقاء ويضم اليه عدداً آخر من الجيش فيتألف من الجيشين وحدة كبيرة تكون جبهة قوية لمقاتلة الاعداء .

وسافر ابراهيم من الكوفة لهذا الغرض ولم يكد يقطع بضع مراحل حتى اتخذ الحزب المعارض سفره وسيلة لاعلان الثورة ومعارضة الحكم الحالي فارسلوا فوراً شبث بن ربعي بعـــد مؤامرات وخطط رسموها في ندوتهم وحينما جاء شبث ثارت ثائرته واحتدم غضبه ولم يكتم الامـير شيئاً انكره اهل الكوفة إلا وابداه بيد أن المختار اللبق عرف مغزى ما جاء به شبث وما يهدف من ثورته فمناه بكل ما يطلب ولـكن بشرط وطيد هو أن يقاتل (هؤلاء الناقمون عليه) بني امية وابن الزبير .

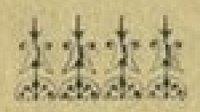
ثورة في الكوفة ضد المختار

اما شبث فمنذ أن رجع راح يحرض رجالات الكوفة سراً وجهراً للانضمام الى عصابته ويقرر الثورة . وفي دقائق حشدت الجبابين وافواه السكك ولم يبق احد من شيعة بني امية وأتباع ابن الزبير الا واعلن عصيانه وتمرده على السلطة . فماذا عمل ابو اسحاق وماذا يجب أن يعمل تفاديا الموقف ؟ ولـكن المختار ـ وقد عرف باصالة الرأي في الشئون السياسية وبانه أقدر الامراء خبرة وتجربة في امثال هذه الحوادث الخطيرة ـ عمد الى ارسال رسول فوراً لحضور ابراهيم وقد وصل المدائن في طريقـــه

الى قتال ابن زياد ولم يكد يصل ابراهيم الخبر حتى سحب جيشه واقبل توا الى الكوفة ووصلها عند العصر .

وحين وصل ابراهيم الكوفة كان صاعقـــة نزلت بهم فساد فيهم الرعب وتولاهم الخوف ولكنهم صمدوا مع ذلك الى معركة حامية ردها ابراهيم مدحورة محطمة .

ومن ذلك اليوم علا شأن المختار وتمهدت له الامور وانبسط نفوذه فلقد قضى على الشغب الداخلي وسلم من عدوه الرابض في عاصمته وقد باء ذلك الحزب بالخيبة والخذلان حيث خسر اغلب زعمائه واهم رجالاته ، فلقد تمكن من الانتقام - عقب هذه الثورة - باعدام مائتين وثمانية واربعين رجلا وكان هؤلاء من قتلة الحسين .



حوادث الانتقام

كان لفشل الحزب المعارض اثره الكبير في تذليل كل عقبة تعوقه عن الوصول الى غايته في الاخذ بالثار ، فقد راح من ثم يبعث جنده على كل رجل اشترك في الدم المسفوح بارض كربلاء ثم يذيقه الوان النكال والتعذيب كذلك اخذ يبث العيون والرصد خارج الكوفة وفي الصحراء على الهاربين لالقاء القبض عليهم حتى استطاع ان يقتل ثمانية عشر الفاً وهو عدد جد كبير اذا قسناه الى مدة سلطنته وهي ثمانية عشر شهراً .

اجل . لقد قام المختار بدوره في هذا المضمار وقد بذل اقصى ما في وسعه من تتبع هذه العصابة المارقة وهو يقول :

(لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى اطهر الارض منهم) .

او يقول : (ما من ديننا أن نترك قتلة الحسين)

أو يخاطب عبدالله بن كامل وكان هذا من اخص بطانته وقد استجار عنده (محمد بن الأشعث) . أتستحل ان تجير قتلة ابن بنت نبيك ؟!

الى امثال هذه الكلمات التي ان دلت على شيء فانما تدل على حبه وولاءه لآل البيت ، واذا صح ما يروى (١) من قرابته من عمر بن سعد وقد قتله فهذا من اكبر الدلائل على ايمانه وعقيدته الثابتة .

وقد اتيح له من الابطال المناجيد بحيث مكنه من الوصول الى غايته المتوخاة ، واهم هؤلاء اثنان ـ سبقت الاشارة اليها ـ وهما :

---

(١) راجع المعارف ص ٢٤٦ قال قتل المختار عمر بن سعد وولده حفصاً او هو بن اخت المختار .

١ — كيسان ابو عمرة وقد جعله على حرسه ، وقيل على شرطه

٢ — عبدالله بن كامل وقد وضعه على شرطه ، وقيل على حرسه .

والآن أيسمح القارىء ان اعرض عليه بعض صور الحوادث ليستخلص منها مدى عقيدة هذا الرجل وثباته .

(قتل الذين رضوا جسد الحسين)

وهم عشرة نفر ، جيء بهؤلاء مصفدين فأمر أن يطرحوهم ارضاً ففعلوا ثم امر أن تضرب سكك الحديد بأيديهم وارجلهم ففعلوا بهم ايضاً ثم اوعز للخيل ان تجري على اجسادهم ولم يتركوا على هـذا الحال دون ان رميت اشلاؤهم في النار كما صنعوا بمثل هذا تماما في الحسين (ع) ثم قام بعد ذلك في :

(قتل عمرو بن الحجاج الذي كان موكلا على المشرعة)

اختلف المؤرخون في مقتل (عمرو) فبعضهم يرى انه ركب راحلته واخذ طريق واقصة وضاع خبره حتى كتابة هذه السطور وبعضهم يرى ان الطلب ادركه ـ وكان مختبئاً باطراف الكوفة ـ اثناء الطريق فذبح وجيء برأسه .

وقيل هرب الى البصرة وفي الطريق هلك ومن معه عطشا وعجل الله بارواحهم الى النار . ثم :

(قتل حكيم بن الطفيل)

وحكيم كانت جريمته التي استحق بها العقوبة هي :

١ ـ ساب العباس بن علي ثيابه في مأساة كربلاء .

٢ ـ رمي الحسين بن علي بسهم تعلق بثوبه ولم يصب جسده الشريف .

وحين وقع بايدي الشيعة جوبه بهذا الخطاب .

الشيعة : انك سلبت ابن علي ثيابه والله لنسلبنك وانت حي تنظر بعينيك . وخلعوا عنه ثيابه .

الشيعة : لقد رميت الحسين واتخذته غرضاً لنبلك والله لنرمينك كما رميته ما تعلق منها اجزاك .

وفوقوا قسيهم وسهامهم واتخذوه غرضاً حتى صار جسده كالقنفذ وخر ميتاً ... ثم بعد هذا :

(قتل مالك بن النسر ورجلين معه)

والرجلان هما :

١ ـ عبدالله بن أسد الجهني ٢ ـ حمل بن مالك المجازي .

وحين جيء بهم مخفورين دار بينهم الحديث التالي .

المختار : يا اعداء الله واعداء رسوله ابن الحسين بن علي أدوا الي الحسين قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه في الصلاة .

الأعداء : بعثنا ايها الامير ونحن كارهون فامنن علينا واستبقنا !!

المختار : فهلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه ؟!

ثم توجه الى مالك بن النسر ، وقال أنت صاحب برنس (١) الحسين

(١) البرنس : قلنسوة طويلة كانت تلبس فى صدر الاسلام .

فسبقه أحد الشيعة وقال نعم هو هو :

فامر المختار عند ذلك أن تقطع يداه ورجلاه فقطعتا والدم ينزف منه حتى هلك ، وألحق الرجلين به فهلكا .

وبعد أن فرغ زعيمنا من هؤلاء ، وجه جهوده إلى :

(قتل شمر بن ذي الجوشن)

وشمر كان أبرص كريه المنظر يدعي المذهب الخارجي ليجعله حجة يحارب بها علياً وابنائه ، وقد وصفه لنا الاستاذ بولس سلامة فقال :

أبرصاً كان ثعلبي الصفات أصفر الوجه أحمر الشعرات

نائيء الصدغ أعقف الأنف مسود الثنايا مشوه القسمات

صيغ من جبلة القرود وألوان الحرابي وأعين الحيات

منتن الريح لو تنفس في الاسحار عاد الصباح في الظلمات

ذلك المسخ لو تصدى لمرآة لشاهت صحيفة المرآة

لم يحرك يداً لاتيان خير فاذا هم هم بالسيئات

هذه هي صورته كما وصفها لنا هـذا الشاعر العربي فلنتأمل إذاً الى ما جاء في اختلاف المؤرخين في مقتل هذا الوغد الأثيم .

بعضهم يرى أنه فر الى البادية وقد أدركه الطلب اثناء الطريق فقتل هو ومن معه وجيء برؤسهم الى الأمير .

وبعضهم يري كما في البحار ـ انه هرب الى البادية فصادفه (ابو عمرة) أثناء الطريق ودارت بينهما معركة أسفرت عن جرح شمر بجروح بليغة وقيد بعدها الى الأمير .. ثم قتل ، فقام بعد ذلك مولى لآل حارثة بن المضرب فوطيء وجهه .

وقيل : انه هرب الى البصرة ونزل قرية تدعى (الكلسانية) على شاطىء الفرات فقتله (ابو عمرة) مع طائفة كبيرة من شيعته وبعث برؤسهم الى الامير . ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات فمن المؤكد بان شمراً قضى عليه المختار وبعد ذلك :

(قتل حرملة بن كاهل)

وحينما قبض على حرملة قال المختار (الحمد لله الذي امكنني منك) ثم قال الجزار الجزار .. فاتي له بجزار فأمر أن تقطع اعضاؤه عضواً عضواً .. ثم قال النار النار .. فاتي له بنار وقصب فأمر باحراقه . وفي هنيبة صار حرملة رماداً تذروه الرياح .

وهنا يروي المؤرخون ان رجلا كان بصحبته يدعى (المنهال بن عمرو) ـ وقد شاهد مقتل حرملة ـ فقال سبحان الله وكررها مرتين ، فقال له المختار .. وقد لفته هذا التسبيح .

(.. يا منهال ان التسبيح لحسن لم سبحت .؟

فاخبره انه سمع الامام علي بن الحسين ـ حين خروجه من مكة وقد علم الامام بحياة حرملة فرفع يديه الى السماء ـ وهو يقول :

اللهم اذقه حر الحديد اللهم اذقه حر النار

ولما سمع المختار بهذه المقالة ، نزل عن دابته وسجد لله شكراً نظراً لاستجابة دعاء الامام على يديه .

وحين أراح الله العباد والبلاد من شر حرملة ·

(قتل الذين نهبوا الورس من رحل الحسين)

وهم كما جاءت ارقامهم في التاريخ :

١ — زياد بن مالك الضبعي .

٢ — عمر بن خالد العنزي .

٣ — عبدالرحمن البجلي .

٤ — عبدالله بن قيس الخولاني .

وسيق هؤلاء النفر اليه قال :

المختار : يا قتلة الحسين سيد شباب أهل الجنة وقتلة الصالحين ان الله قد أقاد منكم اليوم .. لقد جاءكم الورس بيوم نحس ، وسيقوا بعد هذا الخطاب كما تساق الغنم الى جزارها وضربت أعناقهم علناً ، وحين بلغ باعدائه هذا الشوط عزم على :

(قتل عمر بن سعد بن ابي وقاص) .

وكان عمر قد أخذ الأمان (١) لنفسه بواسطة (جعدة بن هبيرة بن

---

(١) ووثيقة الأمان كما وردت في التاريخ هي :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمان المختار بن ابي عبيد لعمر بن سعد ابن ابي وقاص انك آمن بامان الله على نفسك واهلك ومالك وولدك لا تؤاخذ بحدث كان منك قديماً ما سمعت وأطعت ولزمت منزلك إلا ان تحدث حدثاً فمن لقي عمراً من شرطة الله وشيعة آل محمد فلا يتعرض له إلا بسبيل خير ..)

ويفسر انا الطبري واكثر المؤرخين عند التعرض لهذه الحادثة معنى هذا الحدث الذي اتخذه المختار شرطاً وثيقاً واقر به عمر راضياً عن الامام ـ

اخت امير المؤمنين) أخذ الأمان من المختار ليسلم على دمه ، غير أن المختار لم يستقر دون ان قرر أن ينفذ فيه الاعدام فراح يسجع فيه ويقول :

(لأقتلن رجلا عظيم القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين يهز الأرض برجليه يسر قتله المؤمنين والملائكة المقربين) .

وفي الصباح أرسل على أبي عمرة واسر اليه أن يقتله ويأتيه برأسه .. وراح ابو عمرة حتى انتهى الى منزله فقال أجب الامير وقبيل أن يستوي على الارض سبقه سيف أبي عمرة فاطاح رأسه وجاء به اليه .

فالتفت ـ وقد القي الرأس بين يديه ـ الى حفص ولد عمر ، وكان قد ورد عليه ليجدد له الأمان قائلا .

أتعرف هذا الرأس ؟! فبهت الصبي لهذه المفاجئة وقال ولا خير في العيش بعده !!! فقال صدقت فانك لا تعيش بعده ، وألحقه بابيه .

فرأى الناس هذا المشهد المثير .. والمختار يسألهم وقد ران عليه الحزن والأسى . أهذا بالحسين ؟ وهذا بعلي بن الحسين ، ولا سواء ، واقسم بالله إنه لو قتل ثلاثة أرباع قريش ما وفوا عنده بأنملة واحدة (١) .

ـ (ابى جعفر محمد بن على الباقر « ع ») قال :

(إنما اراد المختار بقوله انلا يحدث حدثاً هو أن لا يدخل بيت الخلاء)

ولا مراء ـ عندنا ـ بصحة هذا القول ان قصد به (التورية) التى تطلق على معنيين قريب وبعيد وأراد به البعيد فى نفسه ليظفر بعدوه فيقتله .

(١) جاء فى تاريخ الطبرى ج ٧ : ص ١٢٧ انه بعث بهذين الرأسين ـ

وهكذا أخذ المختار يقتل كل واحد على غرار فعلته الشنعاء في مأساة كربلاء .

قتل عمرو بن الصبيح .. وكان هذا يقول طعنت في أصحاب الحسين وجرحت كثيراً ، قالوا أمر المختار باحضار رماح كثيرة فاتي بها اليه فأمر ان يطعن مرة واحدة فطعنوه حتى هلك ..

و .. قتل زيد بن رقاد .. وكان هذا قد رمى عبدالله بن مسلم بسهم فسمر يده الى جبهته ، ثم اعقبه بسهم آخر قضى عليه .

قال المؤرخون فوثب اليه جماعة وقد اثبتت كفه في جبهته فرشقوه بنبالهم مرة واحدة فخر من وقته ميتاً .

و .. قتل بجدل بن سليم .. وكان هذا قد قطع إصبع الحسين بقطعة سيف خلفها المعركة وأخذ الخاتم من يده .

قالوا .. أمر المختار بقطع يديه ورجليه وجعل يضطرب والدم ينزف منه تدريجياً حتى هلك .

الى محمد بن الحنفية وكتب اليه بالكتاب التالى :

(... اما بعد فان الله بعثني نقمة على اعدائكم فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد ، فالحمد لله الذى قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم .. وقد بعثت اليك برأس عمر بن سعد وابنه وقد قتلنا من شرك فى دم الحسين واهل بيته رحمة الله عليهم كل من قدرنا عليه وليس يعجز الله من بقى ولست بمنجم (اى مقلع) عنهم حتى لا ابقى على اديم الارض إدمياً (اى احداً) فاكتب إلى برأيك اتبعه واكون عليه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ..)

و .. قتل سنان بن أنس ، وكان هذا قد لعب دوراً خطيراً في معركة كربلاء وكان قد طعن الحسين في خاصرته .

قالوا .. أمر المختار أن تقطع انامله ويداه ورجلاه واغلى له زيتاً في وعاء وجعل يرمي أوصاله فيه .

وظل يقتل وينتقم من هؤلاء وغيرهم ويذيقهم الوان النكال والتعذيب حتى افلت منه جماعة والتحقوا بمصعب وكان من جملة من فر يومذاك شبث بن ربعي ، ويحدثنا المؤرخون في هذا الصدد ان العبيد الذين اعتقوا من قبل مواليهم قد لعبوا دوراً خطيراً في ذلك العهد ، وكان العبد يأتي الى مولاه فيقول له احملني على عنقك فيحمله هذا ويدلي برجليه على صدره تحقيراً له وامتهاناً فيه .

ولم يكتف المختار بهذا العدد من قتلة الحسين فقد ظلت في قلبه جذوة تتقد وتتأجج ولم تبرد حتى استراح من أعدى خصومه وفتك بعبيدالله بن زياد ، فقد حدثنا التاريخ انه أرسل ابراهيم في رأس حملة قوية الى قتال ابن زياد فكانت مذبحة عظيمة تدعى (وقعة الخازر) وينتصر ابراهيم على خصمه ويقتله وجماعة كبيرة من اصحابه .

وما شفى غليله حتى هدم بيوتاً كثيرة هرب منها أصحابها مخافة القتل :

هدم :

١ — دار محمد بن الاشعث وبنيت بانقاضها دار حجر بن عدي الكندي .

وهدم :

٢ — دار عبدالله بن عروة الخثعمي ، وكان هذا قد رمى الحسين باثني عشر سهما .

وهدم :

٣ — دار عبدالله بن عقبة الغنوي وكان هذا قاتل أبي بكر بن أمير المؤمنين .

وهدم :

٤ — دار أسماء بن خارجة ، وقد سعى هذا في قتل مسلم بن عقيل .

* * *

والى هنا نجتزىء بهذه النماذج القليلة التي رسمناها بهذه الصفحات ونحن نحيل القارىء اذا شاء الى كتب التاريخ فسيلفيها مثبتة بصورة مفصلة ونحسبه بانه قد كون لنفسه فكرة عامة عن تتبع هذا الزعيم وراء كل رجل اشترك في دم الحسين ثم ينكل فيه افضع تنكيل ، كما وقد عرف عمق ولائه وعقيدته تتجليان بكل حادث من هذه الحوادث .

ولا بد لي هنا ان اتساءل قبل أن اختم هذا البحث لتتم لي خطوط هذا الموضوع كما اريده واتطلبه ويريده ويتطلبه القراء الكرام .

ترى هل للمختار أعذار ومبررات ، تسوغ له قتل هؤلاء الجماعة وغيرهم الذين قدرهم التاريخ ـ وما أحسبه أسرف ـ بثمانية عشر الفاً ؟!!

قد يبدو لاول نظرة إنه قد أخطأ خطأ لا يغتفر إذا لاحظنا الموضوع

من زاوية ضيقة وهي ناحية القتل فقط ، لأن القتل ـ في حد ذاته ـ جريمة بشعة ، ولذا عيب على رجال عرفوا بالتاريخ بسفك الدماء كالحجاج بن يوسف واضرابه ، اما إذا لاحظنا الموضوع من دائرة اوسع حيث ندرك أهمية موقفه ونهضته نراه بعمله هذا انه لم يتعد الشرع ولا العرف ونجزم بانه أحسن بكل ما قام به من تلكم الحوادث ، وتتلخص تلك المبررات فيما أرى إلى :

١ — القصاص من ناحية دينية ، والقصاص ثابت عند الشرع والعرف ويكفي للتدليل على ذلك قوله تعالى :

(ولكم في القصاص حياة يا اولي الألباب) وقام هو بهذا العمل الحسن ليقتص من تلكم العصابة المارقة ، وقد يبدو هنا تساؤل حيث لم يكن هو ولي الدم ولا الوارث الشرعي للحسين حتى يلقي الأخذ بالثأر على عاتقه ، ولكننا نستطيع أن نجيب على هذا التساؤل في :

٢ — أخذه للاجازة من آل البيت وقد سبق أن عرفنا أنه لم يثأر حتى وطد نهضته واعتمد على موافقة علي بن الحسين (ع) ومحمد بن الحنفية وانه أجيز من قبلهما ، يضاف الى هذا كله ان :

٣ — الأخذ بالثأر عادة عربيـــة مألوفة في ذلك الحين ولا تزال آثار هذه العادة العربية المتأصلة بادية في نفوس العرب حتى الآن هذا الى أن :

٤ — التنكيل بالمجرمين السياسيين متبع ـ في الوقت الحاضر ـ

في السياسة الدولية العامة ، وتتجلى هذه الظاهرة في محاكمة مجرمي الحرب بعد انتصار احد المتخاصمين على الآخر فيؤدي ذلك الى إعدامهم اوسجنهم وما الى ذلك ، ونضيف إلى هذا كله أخيراً :

٥ — ان الحكم الاسلامي كما ينطق به القرآن الكريم في إبداء رأيه في المجرمين قوله تعالى (إنما جزاؤ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) (١) .

وعلى هذا نستطيع أن نجزم بان المختار قد قام بقتل هؤلاء وهو محق بذلك حيث انه قد قتل فئة هي في أحط درجة من الفساد والاجرام تلك الفئة التي اجترأت على قتل (ابن بنت رسول الله) في موقعة كربلاء ،وان هذه الفاجعة هم الذين اثاروها للقضاء على بيت النبوة وهي من بعض ما ينسب اليهم من اجرام .

وهكذا أحسن المختار صنعا ـ للمجتمع الاسلامي ـ في قيامه بهـــذه الحملة ضد قتلة الحسين الذين لو ظلوا في المجتمع لـكان يخشى من شر دسائسهم ومكرهم ولـكانوا وبالا عليه لأنهم يعيشون فيه فساداً .

---

(١) سورة المائدة آية ٣٢

المأساة

كانت أنباء ـ حوادث الانتقام ـ تصل مصعب بن الزبير وهو في البصرة إذ ذاك واليًا من قبل أخيه (عبدالله) مكبرة مهولة .. وصادف أنّ عدداً غير قليل من رجالات الكوفة الذين فروا الى البصرة بما فيهم ذلك الحزب المعارض راحوا يألبون مصعبا ويحرضونه على الثورة .. غير أن مصعبا كان يماطلهم ريثما تجتمع لديه من القوة ما تمكنه من نجاح حملته في حين كان المختار يعمل جاهداً في تطهير الكوفة ممن تبقى من قتلة الحسين ، في حملته المعروفة التي نذر نفسه لها حتى لا يبقى على اديم الارض أحداً على حد قوله ، كما وان نجاحه في (وقعة الخازر) وزيادة نفوذه زاده قوة على قوة ونجاحا على نجاح بحيث أصبح مصعب يرنو اليه في قلق وقر رأيه أن يبدأه بالقتال .

يضاف الى هذا ان اخاه عبدالله لم يترك له فرصة للتفكير في أمر عدوه بل راح يلح عليه في إصرار أن يعجل في امره قبيل أن يسد عليه خصمه منافذ النجاة فلا يستطيع الهرب من وجهه .

هذه بعض أسباب المأساة .

وربما كان لانفصال ابراهيم بن الاشتر واستقلاله بالجزيرة ـ وهو العضو المهم في تعزيز جانب الدعوة ـ سبب مباشر من اسباب وقوع هذه الكارثة .

ونضيف ـ نحن ـ الى هذه النذر التي حاقت بالمختار نذيراً آخر قد

يكون له أثره الكبير في انهيار ملكه وتطويح سلطانه وبالتالي في القضاء عليـــه . وهو :

ان كل ثورة تسعى للوصول الى هدف معين بالقوة والبطش يكون ـ حتماً ـ مصيرها السقوط والأنهيار ، وذلك عندما تنتهي مهمتها او قبل انتهائها ، فهي حينما تبدأ ـ وطابعها الدم والحديد ـ تحاط باعداء وخصوم يظلون يعملون بحزم شديد للتطويح بها تحت الخفاء والتستر ، ويكثر هؤلاء الخصوم ويلتف الناس حولهم كلما ازدادت الثورة عنفاً أو توغلت في الأرهاب والتقتيل ، وذلك كنتيجة للضغط الأرهابي الذي تفرضه الثورة على المجتمع فينحاز ـ لاجئاً ـ الى خصم لها ـ أياً كان ـ ليجد فيه مخرجاً لما هو فيـه من العذاب ، وكثيراً ما يحدثنا التاريخ عن هـذه التجربة الاجتماعية التي تتميز بانتفاض المجتمع على كل من يسوسه بالقوة والقتل ، ولا فرق على المجتمع ـ بذلك ـ أن يكون حاكمه محقاً أو غير محق في تبنيه تلك السياسة المعينة ، وكم غيرت هـــذه التجربة من مجرى التاريخ وكم كانت السبب في إطاحة أمم وإشادة امم اخرى ؟!

فاذاً كان وقوع هذه الكارثة ـ على المختار وحكمه ـ نتيجة طبيعية وأمراً لابدّ منه فلولم يكن من ابن الزبير لكان وشيك الوقوع من الكوفة نفسها ، وربما يفسر لنا هـذا سياسة المختار التي سار عليها اثناء الحكم والتي كانت تستهدف توطيـــد ملكه على عماد القدسية الدينية في إظهاره بمظهر الرجل المثالي وادعائه النبوة ـ ان صحت ـ واستعماله بعض

الفذلكات السياسية ـ كما سنرى ـ من حديث الكرسي وغيره الذي يرمي الى تركيز دعوته لانه بهذا ونحوه يستطيع ان يبعد أجل انهياره وسقوطه . ومهما يكن الأمر فقد تهيأ مصعب لاعلان الحرب عليه .

ولندعه الآن لنلتفت قليلا الى المختار ونراه ماذا يصنع ؟!

يسمع المختار بتأهب مصعب بن الزبير للزحف عليه فيبدأ دور بطولته بخطبة موجزة يقول فيها :

(... أما بعد يا أهل الكوفة فان أهل مصركم قد بغوا عليكم كما قتلوا ابن بنت نبيكم وقد لجأوا الى أمثالهم من الفاسقين الملحدين فاستعانوا بهم عليكم ، وذلك حينما علموا بان ابن الاشتر قد خذلني وقصر عن نصرتي وقد بلغني أنهم خرجوا من البصرة يريدون قتلي ليضمحل الحق وينتعش الباطل ويقتلوا أولياء الله ، ألا فانبدوا مع الاحمر بن شميط ..)

وهي على ايجازها تصور لنا مبلغ استيائه من اولئك الذين لجأوا الى امثالهم ـ ويعني بهم آل الزبير ـ من الفاسقين الملحدين كما تصور مدى ضعف أمله في الانتصار بهذه المعركة ، ولم يفرغ من خطابه حتى قام الناس متثاقلين وهم يقولون (سمعنا واطعنا) واجتمع لديه قرابة اربعة آلاف وهو عدد ضئيل غير متكافيء مع جيش مصعب الذي كان يبلغ سبعة آلاف رجل إذ ذاك .

وقد أمر عليهم قائده الجريء الاحمر بن شميط فسار بهم هذا الى حمام اعين فالمذار وقد عسكر جيشه بهذا الموضع .

اما جيش خصمه فقد نزل على مقربة منهم وحين تم الاستعداد والتأهب من كلا الفريقين كان لكل منهم ان يعرض على الآخر الطاعة والخضوع على عادتهم التقليدية ، فكان جيش العدو أول من ادلى برأيه وهو البيعة لعبد الله بن الزبير ، وقد ابى عليه جيش المختار ودعاه الى الخضوع اولا للهدف الذي ثار من أجله « وهو الطلب بدم آل البيت » ثم (جعل الامر شورى بين آل الرسول)

فابى كل منهما ان يذعن الى الآخر وكان ان شبت المعركة . ودارت رحى الحرب ومضت تطحن الارواح في جنون ولم تكف حتى كان النصر حليف مصعب بن الزبير ، اما المختار فقد تخاذل عنه جيشه وبدأوا يتفرقون عنه هنا وهناك وهم يقولون أما وعدتنا النصر على عدونا ؟! فيقول :

(يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)

ودخل مصعب الكوفة وهو فرح مسرور بهذا الفتح وبمعيته المهلب ابن أبي صفرة فيقول يا أبا سعيد ياله من فتح ما أهنأه ؟

اما المختار فقد اضطر — بعد ان يئس من أصحابه — ان يتوارى في قصر الامارة مع فريق من اصحابه وحوصر القصر أمداً طويلا قدره بعض المؤرخين باربعين يوما وكلما شددوا عليهم في الحصار ازدادوا ثباتا ورسوخاً ولم يستسلموا للموت صاغرين .

وأخيراً وقعت الكارثة .

كره المختار مكثه في هذا السجن لاسيما وقد منع عنه وعن خاصته الماء

فخرج مستميتاً في هذه المرة وقد استلئم للقتال وهو يتمثل بابيات غيلان الثقفي .

ولو يراني أبو غيلان إذ حسرت عني الهموم بأمر ماله طبق
لقال رعبا وغما يجمعان معاً غنم الحياة وهول النفس والشفق
والموت أحمد شيء للكريم إذا طغى له الدهر والآجال تخترق

وحمل عليهم حملة منكرة قتل منهم جماعة ثم شددوا عليه الحصار مرة أخرى فآوى ثانيا الى القصر وفي هذه المرحلة بدأ ينفض كفه من الحياة وقد ترآى له الموت فبعث على زوجه ام ثابت وطلب منها شيئاً من الطيب والحنوط فارسلت بهما اليه . ثم قام فاغتسل ليودع هذه الحياة ويريح ذلك الجسم المتعب ، ويستقبل بالتالي الحياة الاخرى .

وبعد فترة قصيرة حمل فيها على جيوش العدو ومعه لفيف من اصحابه وهم الذين ثبتوا الى الرمق الاخير ، واذ ذاك حمل عليه أخوان من بني حنيفه فضرباه بالسيف حتى سقط ثم عمدا اليه فاحتزا رأسه .

وهكذا انتهت حياته بهذا اللون من النضال المرير عام ٦٧ هـ (٦٨٦م)

تهم وأقاويل

المختار والامام الحسن (ع)

روى لنا الطبري (١) عن عثمان بن عبدالرحمن او عبدالرحمن المجازي «ابو عبدالرحمن» عن اسماعيل بن راشد : قال بما مؤداه :

(إن.. الحسن «ع» نزل المدائن في المقصورة البيضاء بعد ماطعن بمغول في فخذه وكان عم المختار بن ابي عبيد عاملا على المدائن اذ ذاك اسمه سعد ابن مسعود ، فقال له المختار وهو غلام شاب هل لك في الغنى والشرف ؟ قال وما ذاك ! قال توثق الحسن وتستأمن به الى معاوية ، فقال له سعد عليك لعنة الله : أثب على ابن بنت رسول الله فاوثقه بئس الرجل انت)

هذا هو فحوى الحديث ونحن لو تأملنا فيه جيدا واحطنا بظروفه وملابساته يظهر لنا عدم المصادقة عليه في وجه من الوجوه .

اولا .. ضعف السند لأن هذا الحديث يرويه - كما رأيت - (اسماعيل ابن راشد) و (عبدالرحمن المجازي) وهما عند علماء الرجال من المجاهيل المتروكين الذين لايعتمد ولا يوثق بحديثهما في شيء من مدح او ذم (٢) وعليه فان هذه الرواية المرفوعة بالسند الى هذين الرجلين متروكة من اساسها ولا يصح الاخذ بها من هذه الجهة ، او هي على الاقل توجب التشكيك والترديد .

ثانيا .. اننا لمسنا من لسان الرواية انه (غلام شاب) وتأريخه اذ ذاك

---

(١) ج ٦ ص ٩١

(٢) تنزيه المختار : للمقرم

يأبى عليه من ان يكون من الغلمان الشبان لان هذه الحادثة كانت عام ٤١هـ وكان من له من العمر احدى واربعون سنة لان ولادته كانت في عام الهجرة .

ثالثاً .. ولو سلمنا صحة النقل من جهة وان (هذه الرواية) تنسجم وعمر المختار من جهة اخرى فلماذا لا نرجح لمن يذهب (١) بان (المختار) كان في دور الاختبار والامتحان لعمه (سعد بن مسعود) ولا سيما اذا رجعنا الى ذلك الظرف الدقيق من هذه الحادثة ورأينا كيف كان معاوية - عدو الامام الحسن ومنافسه في الخلافة - يبذل المال بسخاء كسباً للمعسكر الهاشمي ، وكيف كانت تباع الضمائر ثم تشتري بابخس الاثمان ، ونظرة واحدة لذلك الظرف تكفينا للاخذ بهذا القول لم لا نقول « والحالة هذه » والجو مضطرب قلق يتأرجح على اطماع معاوية وميوله وغاياته ، انه خشى من عمه ان ينجرف بذلك التيار كما انجرف غيره من القادة والزعماء فاراد ان يجرب ثباته على مبدئه القويم وعقيدته الراسخة وهو ولاؤه لآل محمد (ص) فراح يفكر المختار ويمعن في التفكير (والحسن يومئذ في المقصورة) حتى التقى في خلال ذلك : « شريك الاعور » وكان هذا من أعلام الشيعة ومن جلة بطانة الامام فوصف له الناس وانحرافهم عن طريق الهداية ، ثم عاد ثانيا يسأله وجه الحيلة ان صدرت من عمه في تلك الحال بادرة ما يستشف منها غائلة السوء او الخيانة بالامام فما يكون موقفه هو في مثل هذه الحال ؟ فقال له « شريك » بما نخواه .

---

(١) ذهب الى هذا القول العلامة ميرزا محمد على الاوردبادى في رسالة المختار عن مجالس المؤمنين عن كتاب نقض الفضائح للشيخ عبدالرزاق الرازى

ان تذهب الى عمك فتسره وتعرض عليه فكرة الاغتيال والخيانة والغدر فان كان في نفسه منها شيء — والمرء يظهر على وجهه وفلتات لسانه مايبطنه في نفسه — اتخذنا الحيطة والتدابير واخرجنا الامام الى جهة من الجهات ، وان كانت الثانية تطمئن الى سلامة عمك مما تسرب اليك من هذا الشك .

ويروح المختار يعرض على عمه تلك الفكرة ويحبب اليه نتائجها الحسنة من الحظوة (بالغنى والشرف) ولكنه رأى منه مالم يكن يقدر ان يراه من الولاء والعقيدة والثبات ./

المختار والكيسانية

اتهم المختار من قبل بعض المؤرخين بان فكرة ﴿ الكيسانية ﴾ تعزى اليه وانها من مبتدعاته ، وقيل عنه أيضا أنه لم يبتدعها وانما اعتنق مذهبها وقبل ان نبحث هاتين النقطتين على ضوء ماعندنا من ادلة لنرى نصيبهما من الصحة ، يجب أن نعرف شيئا موجزاً عن هذا المذهب .

الكيسانية : هي عقيدة تنتهي الى القول بامامة محمد بن الحنفية ويختلف معتنقوها بعد ذلك فقائل انه ورث الامامة عن علي مباشرة ، وقائل أنها انتهت اليه من طريق أخويه الحسن والحسين ، فمن ذهب الى القول الاول كان يرى أن صلح الحسن لمعاوية وخروج الحسين على يزيد كان برخصة من محمد ولو لم يرخصها لهلكا وضلا .

ونجم من اختلاف هذه الاقوال وتشعبها — أن حمل بعضهم على القول

بالتناسخ والحلول والقول بالرجعة كما حملهم هذا الاعتقاد على تأويل الاركان الشرعية من الصلاة والصوم والحج ، وقالوا عن محمد أنه لايموت ولا يجوز عليه الموت وانه غائب في جبل (رضوى) وانه .. وانه ..

هذا هو ملخص ماجاء عن مذهب « الكيسانية » نقلناه بهذه الاسطر .

ونحن لو رجعنا الى تهمة بعض المؤرخين في انتماء هذه الفكرة اليه ، لانراها تستند في ارتجالياتها الى دليل مقنع ، فهذا « الطبري » في تاريخه والبغدادي في « الفرق بين الفرق » والشهرستاني في « الملل والنحل » كل اولئك يعزون هذه النسبة الى « كيسان مولى علي بن ابي طالب » اللهم الا ان نأخذ بما ورد في (مروج الذهب) وما ورد في (العقد الفريد) من نسبة هذه الفكرة اليه — على ان المسعودي لايعتمد على قوله لتردده في ذلك إذ يقول « أو هو غير المختار » .

وهناك اقوال كثيرة ليس هنا محل ذكرها « تفرق بين كيسان والمختار فيقول ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل » أن هناك شخصين مختلفين هما كيسان ابو عمرة والمختار وهناك ايضا جمهرة من المؤرخين تنسب هذه الطائفة الى كيسان مولى . بجيلة (١)

وهناك كتب أخرى تنفي هذه النسبة عنه أو تتوقف فلم تذكر انتمائها الى أحد .

---

(١) على هامش تاريخ الاسلام السياسى ص ٣٤٥

١ ـ كتاب الغيبة لابي جعفر الطوسي .

٢ — كتاب الانوار النعمانية للسيد الجزائرى .

٣ — كتاب تبصرة العوام .

٤ — « ابن دود » في رجاله .

وهذا التضارب والاختلاف لايدعنا نطمئن الى أنه هو المبتدع لهذه الفكرة ، وليس لدينا من الشواهد ما يكفي للجزم بهذه النسبة ان لم يكن هناك مايوجب الجزم بعدمها ، ولـكن بقي علينا ـ بعد هذا ـ ان نعرف مدى تأثره بهذه الفكرة وهل تبناها كعقيدة ؟! أم هي مجرد دعوة سياسية ليس الغرض منها الا الطلب بالثأر .

اكبر الظن انه لم يتأثر بها كعقيدة ـ وما كان لمثله وهو من هو بمكانته العقلية والعلمية ـ ان يتأثر بامامة محمد مع ما اشتهر عن محمد هذا بالقول بامامة علي بن الحسين ، وربما جاءته الشبهة من تلقبه بالـكيساني وقدسبق ان قلنا ان الملقب له هو الامام علي (ع) لقوله (يا كيس يا كيس) وقد عرف لذلك منذ صباه وقبل ان تنشأ هـذه العقيدة بالـكيساني ، بالاضافة الى أن علماء الرجال في كتبهم التى هي محل وموضع ثقة الناس ينفون عنه هذه العقيدة ويقربون اعتقاده بامامة السجاد وهم :

١ — المحقق الاردبيلي في كتابه (حديقة الشيعة)

٢ — ابن داودفي (رجاله)

٣ — العلامة الحلي في (الخلاصة) يعده في القسم الاول فيمن يعتمد عليهم .

٤ — ابو علي في « رجاله »

٥ — ابن نما في كتابه (ذوب النظار)

٦ — الكشي في « رجاله »

هذا الى اننا قد نستنتج من روايات الأئمة في مدحه - كما سنرى - انه غير كيساني لانهم لا يمدحون رجلا منحرفا في عقيدته أو ضالا في مذهبه أما نحن في الذي نستظهره من جميع هذه الاعتبارات وغيرها الموجبة لنشوء هذه العقيدة ونسبة تبنيها اليه هو :

ان محمد بن الحنفية كان شيخ الهاشميين والزعيم المرموق منهم سنا وشأنا وهو في نظر عامة الناس خليفة أخيه ووارثه علما لاسيما والامام « علي بن الحسين » كان صغير السن ولم تكن تعرف الناس يومذاك نواميس الامامة وانها ليست في الكبر فلو اشتبه على جماعة من الناس بعد الحسين « ع » فلا غرابة في ذلك ولو نسبت اليه الكيسانية كما ترى اكثر الناس ذلك في محمد فلا نستطيع ان ننسبها اليه ولا نقول بعدمها بادىء بدء ، نعم ليس من الصواب بعد استقرار الحال ومعرفة الناس شأن الامام زين العابدين ومكانته من الامامة ان نبقى على الاعتقاد فيه بالكيسانية .

يضاف الى هذا ان دعوته لمحمد - ان صحت - في بداية الثورة كانت

مجرد دعوة سياسية ليس الغرض منها الاعتقاد بامامة محمد ، وفرق كبير بين الدعوة الدينية – كما هو واضح – والدعوة السياسية التى تهدف الى جمع اكبر عدد ممكن للطالب بالثأر ، وهذا هو السبب الذي وقع فيه الخلط من اكثر المؤرخين فاتهموه بالكيسانية .

وهذا هو اقصى ما توصلت اليه في جلاء هذه النقطة الغامضة من عقيدة هذه الشخصية الكريمة . /

حديث الكرسي

ومؤدى هذا الحديث فيما روى عن « الطفيل بن جعدة » من أنه جاء الى المختار – وقد دفعه الى ذلك دافع الاملاق والطمع – يخبره بان لديه كرسي كان يجلس عليه أبوه « جعدة » ويروي أن فيه أثراً من علي (ع)

فقال المختار : سبحان الله ولماذا اخرته الى هذا الوقت ؟ ! ابعث به الينا فبعثه اليه ، وقد حصل الطفيل – بعد ذلك – لقاء هذا العمل اثني عشر الفا .

فراح المختار من بعد يخطب في الناس ويخبرهم انه كان في بني اسرائيل التابوت وان هذا فينا مثل التابوت فيه السكينة والبقية والملائكة فاندفعوا وراءه يكبرون . وقد غشي بالديباج – ووضع في «براح الصف» – كما يقول الشهرستاني – ويقال لهم قاتلوا ولكم النصرة والظفر .

هذا هو حديث الكرسي ونحن لو تأملنا بهذا الحديث واستطعنا ان

تصحح نسبته من وجهة تاريخية نرى انه لم يكن سوى حيلة سياسية/لجأ اليها لتقوية روح النضال في جيشه لما يعرف من تعلق الجيش بالامام وتفانيه في حبه ، وأي شيء أقوى تأثيرا من أثر للامام يشعرون بانه حتما ستكون الغلبة والظفر لهم على يديه ، كما وان فيه — في الوقت نفسه — اضعاف جانب العدو وانهيار قوتهم المعنوية أمام قوته الروحية .

وصفوة القول فان في هذا الحديث — ان صح — اسلوبا رائعا وفنا ممتازاً من أفانين الحروب الذي قوى فيه عسكره وخذل فيه جبهة عدوه ، على أنا لا نمنع اكباره له واقعا وقد رأينا ان من عادة المسلمين في تلكم العصور إكبار واعظام كما يتعلق بالاولياء والصالحين ومن تتبع آثارهم وجد الكثير من هذا النوع .

خاتمة المطاف

ولعلنا الى هنا ، وقد رافقنا المختار من بداية حياته حتى أوفي بنا البحث الى ـ خاتمة المطاف ـ ورأينا كذلك ما توجه اليه من تهم واقاويل ـ كانت ـ على الاكثر ـ نابعة عن ضغن وعداء لانها لا تتفق وسيرته تلك السيرة التي درسناها مستقصين اسسها ومباعث ظهورها .

والآن ـ وبعد هذا ـ لنطوف بالقارىء في اجواء أخرى ربما تلقي علينا بعض الضوء على ما احيط به صاحبنا من ملابسات وما نسب اليه من طعون . وذلك عندما نقرأ ما أثر في مدحه والثناء عليه عن ائمة المسلمين واعاظم رجالات الاسلام وقد طفحت فيها الموسوعات الكثيرة من كتب الرجال التي هي محل وموضع ثقة الناس .

أقول : اذا رسمنا بعض تلكم الاحاديث التي تشيد بذكراه لا يبقى في انفسنا شك انه كان في نجوة مما نسب اليه التاريخ .

ولنأخذ طرفاً من هذه الاحاديث ونبدأها بقول الامام أبي جعفر محمد الباقر (ع) فاسمعه فهو يقول :

لا تسبوا المختار فانه قتل قتلتنا وطلب بثأرنا وزوج أراملنا وقسم فينا المال على العسرة (١)

وحديث الامام هذا ظاهر في حرمة سب المختار وقذفه بما هو بريء منه . وذلك لدلالة النهي على الحرمة كما يقول الاصوليون . ومعنى هذا ان الامام راض في قراره نفسه عن كثير مما قام به المختار وبخاصة فيما يتعلق

(١) رجال الكشي ص ٨٤

بنهضته وما يعود لانتقامه من قتلة الحسين بالاضافة الى مايشعر به الحديث من ارتياح الامام للخدمات التي أسداها المختار لذرية الرسول من تزويجه لفقرائهم وارساله الاموال الخطيرة للمعوزين وذوي الفاقة منهم .

وبعد هذا الحديث يتجلى لنا بوضوح السبب في ترحم الامام أبي جعفر « ع » عليه ، وذلك عندما دخل عليه ولد صاحبنا (ابي محمد الحكم) فتناول يده ليقبلها - كما يعرب لنا الحديث - وكان إذ ذاك في (يوم النحر) فمنعه الامام ... ثم قال من أنت ؟ ! قال « انا أبو محمد الحكم ابن المختار ابن ابي عبيد » فكاد الامام ان يقعده في حجره .. ثم قال اصلحك الله : ان الناس قد اكثروا في ابي وقالوا والقول والله قولك : قال واي شيء يقولون ؟! قال يقولون إنه كذاب ولا تأمرني بشيء الا قبلته ، فقال الامام سبحان الله أخبرني أبي إن مهر أمي كان مما بعث به المختار . . أو لم يبن دورنا ؟ وقتل قتلتنا وطلب بدمائنا رحم الله أباك .. رحم الله اباك ماترك لنا حقا عند احد الا طلبه قتل قتلتنا وطلب بدمائنا (١)، وانت حين ترى معالم هذا الحديث يتضح لك مدى تكريم الامام وحفاوته بولده الامر الذي يدلنا على ما يكنه أهل البيت من عاطفة قوية نحو المختار . وباختصار فان هذه الصورة التي رسمها لنا هذا الحديث تدلنا بجميع خطوطها والوانها على ان المختار كان موضع عطف الامام ، وهذا يكفي للدلالة على مايستحقه من تقدير !

---

(١) رجال الكشي ص ٨٤

أما ماروى من دعاء الامام ـ على بن الحسين (ع) ـ له فهو من أصدق الصور على رضاه بفعله وشكره على عمله وذلك حينما ارسل المختار راسي عبيدالله بن زياد وعمر بن سعد : قال المؤرخون .

فخر الامام ساجداً : وقال الحمد لله الذي ادرك لي ثاري من اعدائي وجزى الله المختار خيرا (١)

ولكي نكون اكثر التماسا لما نحن بصدده نستمع الى بعض اقوال العلماء الاعلام وهذا .

١ — ميرزا حبيب الله الخوئي في شرح نهج البلاغة (٢) قال مالفظه ـ بعد ان افاض في الذب والدفاع عنه ـ يكفي في فضله مارواه (الكشي) من ان الامام عرف منه صدق النية ـ ويشير بذلك الى الحديث السابق من ترحم الامام عليه ومطابقة ضميره لما كان يظهره ويتهالك فيه من الذب عن كيان البيت العلوي وتركاضه في أخذ الثأر واستأصال شأفة الملحدين وصلة اهل البيت بالأموال وخدمتهم رجالا ونساء ورواية حديثهم والا كان جوابه مبتورا عما قبله من السؤال ، ولم يكن (ع) بالذي يداهن او يصانع أو يغرى بالجهل بمدح كذاب او مبتدع في دين او جانح الى دعاية مضلة من امامة من ليس له الامامة او دعوى نبوة باطلة لمحض انه وصل اباه بمال او قتل له عدوا او أن ابنه بحضرته فيكون قد اتخذ المضلين عضدا ،وهذا ايضا

---

(١) رجال الكشى ٨٤

(٢) ج ٣ ص ٧٥

٢ ـ ابن داود في رجاله فند كما روي في الطعن عليه واعتمد على الاحاديث المادحة .. اما

٣ ـ العلامة الحلي فلم يعن بما جاء في الحط من كرامته او الطعن فيه ولذلك ذكره في القسم الاول من (الخلاصة) المعقود لمن يوثق بصدق روايتهم في الحديث كما تطرق الى ترحم الامام عليه من جهة ونهي الناس عن سبه من جهة اخرى .

يضاف الى هؤلاء من العلماء الاعلام والمحققين :

٤ ـ المحقق الاردبيلي في (محقق الشيعة)

٥ ـ القاضي نور الله التستري في (مجالس المؤمنين)

الى كثير من هؤلاء الاعلام اجمعوا على شكره في عمله وما قام به من تلك النهضة الشريفة التي كان شعارها الطلب بدم الحسين .

***

اما بعد .. ايها القارىء العزيز

فقد اجتمعت بك على صعيد هذه الدراسة التاريخية ـ على غير ميعاد ـ وتعرفت عليك بواسطة هذا الكتاب الذي أرجو ان اكون قد حزت على رضاك فيه ، فاذا اعجبك فهذا جل ما أتمناه ، لانني سوف اثق بانك قد أصبحت لي صديقا حميما ربما التقي معه في فرصة أخرى ـ إنشاء الله ـ واذا بدت لك ملاحظات حول الكتاب ارجو ان توافيني بها ، واذا أردت ان تتأكد من دراسة هذا الموضوع فعليك ان ترجع الى المصادر

التي اخذنا منها مادة كتابنا هذا ـ وان رجعنا الى غيرها في هذه الدراسة ـ فستراها مثبته في الصفحة التالية :

***

ولا بد لي في ختام هذا البحث ان اشكر فضيلة العلامة الشيخ محمد علي الاوردبادي لما وفر لي من مصادر رجعت اليها في بحثي هذا وللاستاذ الفاضل الشيخ عبد الهادي الاسدي بما بذله من مساعدة في تصحيح الكتاب وللقارىء الذي رافقنا الى هذا المكان ، والسلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته .

النجف في ٨ ـ ٥ ـ ١٩٥٥

احمد الدجيلي

مصادر الكتاب

١ انساب الاشراف : للبلاذري
٢ الاستيعاب : لابن عبد البر
٣ أسد الغابة : لابن الاثير
٤ الأصابة : لابن حجر
٥ الكامل : لابن الأثير
٦ تهذيب التهذيب : لابن حجر
٧ تاريخ الطبري
٨ تاريخ الكوفة : للبراقي
٩ دائرة المعارف : فريد وجدي
١٠ مقتل الحسين : للخوارزمي
١١ البداية والنهاية : لابن كثير
١٢ الاخبار الطوال : للدينوري
١٣ تاريخ الاسلام السياسي : للدكتور حسن ابراهيم حسن
١٤ مختصر تاريخ العرب : للسيد امير على
١٥ جمهرة رسائل العرب : احمد زكي صفوت
١٦ معجم البلدان : لياقوت الحموي
١٧ مروج الذهب : للمسعودي ج ٢ , ١١٤
١٨ فرق الشيعة : للنوبختي
١٩ الفرق بين الفرق : للبغدادي
٢٠ ذوب النظار : لابن نما

٢١ الملل والنحل : للشهرستاني

٢٢ الملل والاهواء : لابن حزم

٢٣ رجال الكشي :

٢٤ الخلاصة : للعلامة الحلي

٢٥ رجال المامقاني :

٢٦ تنزيه المختار : للمقرم

تصويبات

لقد حاولنا قدر الامكان ان يكون الكتاب خلوا من الاغلاط المطبعية غير انه وقعت بعض الاغلاط الطفيفة وهانحن اولاء نشير الى أهمها معتذرين الى القراء .

ص	س	الخطأ	الصواب
١٨	١	نفس	نفسي
٣٢	١٧	غيبة	غيبه
٦١	١٢	عضوا	عفوا
٩٤	١٢	محمدبن الاشعث	قيس بن الاشعث
٨٠	٥	وضيفته	وظيفته
١١٥	٦	يجب	يحبب

يضاف الى هذا انه طمست معالم كلمتين من صحيفة ١٤ سطر ١٠ والكلمتان هما البراءة أو القتل

ووقعت سهوا زيادة عن في صحيفة ٢٢ سطر ٢

ووقعت كذلك سهوا زيادة كلمة بعد في صحيفة ٢٩ سطر ٩


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT